منشورات الأستاذ : طارق عثمان

على : Facebook

من بداية نشأة الحساب إلى تاريخ : 2014/11/4

١- المطر؛ بكاء السماء وقرة عين الأرض، يمنح البرد دفئا وشجنا، يكسر قسوة الشتاء ويغيظ الصيف، يغسل طول المسافة بين قلبي وقلبكِ، كل دمعة منه تحي نبتة في أرض الذاكرة، مع كل بلة منه تتعلم درسا جديدا في الحنين، ملمسه الشفاف يدربك على أن تشتاق، وحده يأتينا ولا يستأذن، مخفف هو من عبء الانتظارات، موسيقي المسمى: مطر!!

٢-قوة بلا سلاح: محاولة في فهم قطر
"كم نحن مدينون لقناة الجزيرة!" لا يسع رافض للانقلاب العسكري، إلا أن يقر بوجاهة هذا الاعتراف؛ وذلك للدور الجلي الذي تلعبه المحطة في دعم الثورة على الجنرالات، وفضح سياسات نظام ما بعد الانقلاب. ولكن هذا الدور الراهن للمحطة (وعامة خطابها الإعلامي منذ الانطلاق في ٩٦)، يثير لدى البعض قدرا ما من الاستغراب عند النظر إلى طبيعة السياسات القطرية؛ إذ يبدو ثمة تناقض بينهما.
سوف لن انشغل هنا بسجال بارد حول الجزيرة، ولا بتحليل خطابها الإعلامي، ولا بمقولات من قِبل: الموضوعية والحياد والمهنية... إلخ من المقولات المستهلكة حد الابتذال. ولكن في المقابل سأحاول أن أقارب العقل السياسي القطري، بالكشف عن المحددات الرئيسة التي تشرط السياسة الخارجية القطرية، وتحديد الموضع الذي تحتله المحطة في استراتيجية قطر:
يمكننا أن ننطلق في فهم السياسات القطرية من الفرضية التالية:
"قطر دولة صغيرة لا تمتلك ما يؤهلها لكي تكون قوة كبيرة أو حتى متوسطة، ولكنها تسعى لذلك متوسلة بما أتيح لها إمكانات".
معلوم أن ثمة محددات كثيرة: جغرافية وتاريخية وديمغرافية،..إلخ، يلزم أن تتاح لدولة ما، ويتاح لها استثمارها، حتى تتمكن من بلورة مكانة سياسية مرموقة على مسرح النظام العالمي. والحال أن قطر تكاد تكون عارية تماما من هذه الشروط والمحددات؛ فالمشيخة التي تطل على الخليج

لا تملك جغرافية أو تاريخ أو ديموغرافيا، بهم تتأهل لمصاف القوى السياسية الكبرى. ولا شك في كون صانع السياسة القطري يعلم ذلك تمام العلم، ولكن هذا لا يمنعه من أن يطمح في تقلد مكانة استراتيجية مرموقة في إقليمه على الأقل. ولكن كيف سيعوض هذا العوز الطبيعي في الإمكانات الواجب توافره عليها كيما يكون كما يطمح أن يكون؟

انبت استراتيجية الدوحة في تحصيل هذا الدور الإقليمي (والدولي!) الذي تطمح فيه، مع عوزها لهذا المقومات على المحاور الآتية:

أولا: أن تلعب دور الوسيط السياسي؛

فإذا لم يكن بمكنتي أن أكون دولة كبيرة، فعلي أن أجعل الدول الكبرى والعظمى تحتاج إليّ؛ تحاول قطر أن تنشط في حدود إقليمها (وتطمع في تجاوزه أيضا)، كفاعلٍ قوي، يملك من التأثير والفاعلية قدرا غير قليل. ومن ثمة تحاول أن تنخرط في كل القضايا الإقليمية، والدولية أيضا ما استطاعت إلى ذلك سبيلا (والتي لا تعنيها ابتداءا!ّ)، كوسيط سياسي (يمكن النمذجة هنا بملف المصالحة الفلسطينية، الملف اللبناني، ملف دارفور، ومؤخرا ملف المفاوضات مع حركة طالبان(

ودور الوسيط السياسي، يقتضي ضمن ما يقتضي أن يكون على علاقة طيبة ومتينة قدر الإمكان مع كل الأطراف؛ وعليه يلزم أن تكون علاقتها بالقوى العظمى متينة، تحديدا واشنطن، نظرا لنفوذها القوي في المنطقة (مقارنة بالصين وروسيا مثلا). ثم تسعى هي لنسج العلاقات القوية مع الفرقاء المتشاكسون في نفس الآن، مما قد يشي بدرجة من درجات التناقض، بينما الحال، هو أن دور الوسيط يقتضي ذلك. خذ مثلا علاقتها الطيبة في آن مع حماس وفتح، وعلاقتها الوطيدة مع واشنطن وطهران...إلخ

ثانيا: أن تخرج من عباءة السعودية؛

دوما ينظر إلى دول مجلس التعاون (البحرين، الكويت، الإمارات، قطر، وسلطنة عمان) بوصفهم الأخوات الخمس الصغار للملكة السعودية؛ فهي القوة الإقليمية الأكبر في منطقة

الخليج، وفي الشرق الأوسط برمته، بالمنافسة مع إيران وتركيا وإسرائيل طبعا. ومن ثم فدول الخليج لا تخرج عن الإطار السياسي العام الذي تفرضه المملكة .

ولكن قطر ومن بعد الانقلاب الناعم الذي نفذه "حمد" على والده، في ٩٥ والذي أغضب السعودية بلا حدود، سعت أن تصطنع لنفسها قدرا ما من الاستقلالية عن الأخت الكبرى. ولكن ثمة سقف معين لا يمكن لها أن تكسره في سعيها هذا؛ وذلك لكون المملكتان يجمعهما الكثير (أهمه الخوف من إيران.(

وفي هذا السبيل قامت بالآتي :

-تمتين علاقتها مع واشنطن (استضافة القواعد العسكرية التي تقدم الدعم اللوجيستي الرئيس للقوات الأمريكية في المنطقة)؛ كيما لا تظفر الرياض وحدها بوصل واشنطن، وكي توفر لها الأخيرة الحماية الأمنية اللازمة.

-عدم القطع مع طهران؛ فبخلاف الرياض لا تبدي الدوحة هذه الفظاظة في معاملتها لطهران، يرجع ذلك في جزء منه لمقتضيات دور الوسيط المذكور آنفا، ولكن الجزء الأكبر يرجع لمشاركة الدوحة لطهران في حقل الغاز الرئيس.

-محاولة القيام بدور مواز لدور السعودية في نشر السلفية الوهابية. ثم تكوين غطاء ديني لسياستها، يوازي الغطاء الديني الذي توفره المؤسسة الدينية في السعودية لسياسات المملكة (يأتي دعمها للشيخ للقرضاوي في هذا السياق(

ولتفعيل أولا وثانيا، يأتي دور ثالثا؛

ثالثا: تحصيل قدرا من القوة الناعمة عبر الجزيرة والاستثمار؛

من المعلوم أن مفهوم القوة الناعمة قد سكه العلامة "حوزيف س. ناي"، بوصفها ضديد فعال لقوة الدولة الصلبة، المتمثلة في القوة العسكرية. (طور "ناي" مؤخرا مفهوم "القوة الذكية"، ويقصد به مركب القوة المتحصل من مجموع القوتين: الصلبة والناعمة(

وعبر قوتها الاقتصادية وقوة الجزيرة الإعلامية استطاعت قطر أن تحصل قدرا لا بأس به من القوة الناعمة:

-فعلى عكس باقي مشيخات الخليج لا تعتمد قطر على مواردها النفطية لتأسيس بنيتها الاقتصادية (هي المصدر الأول للغاز المسال في العالم وثاني أو ثالث أكبر احتياطي غاز بعد روسيا وإيران)، وإنما تستثمر عبر جهاز قطر للاستثمار في مجالات نوعية (شراء سلاسل محلات مرموقة ونوادي رياضية كبيرة في أوروبا، شراء عقارات، والاستثمار في التعليم عبر مؤسسة قطر،...إلخ(

-ثم استثمرت قطر في الجزيرة بقوة كيما تؤسس مزيدا من هذه القوة الناعمة؛ إذ سعت عبر الجزيرة لتحصيل مكانة رمزية في المخيال السياسي العربي؛ فهاهي محطة عربية أخيرا تحمل هم المواطن العربي، وتتبنى قضاياه، وليست بوقا للأنظمة العربية، وحقا نجحت الجزيرة في القيام بهذا الدور بجدارة لا مراء فيها. هذه القيمة الرمزية للمحطة مكنت قطر باقتدار من استغلال المحطة في خدمة سياستها. خذ بنا مثال توظيف قطر الجزيرة لخدمة سياستها في الربيع العربي: قررت قطر دعم ثورات الربيع العربي؛ لأنها رأت فيها واقعا لا محالة، لا راد له ولا صاد، ومن ثم يلزمها أن تقدم اليوم يد العون لمن سيكونون حكام هذه البلاد في الغد القريب. وقد جرأها عامة في هذا السياق، أنها لا تخاف مما تخاف منه باقي دول الخليج؛ أي انتقال عدوى الثورة إليها؛ فقطر قد رتبت أمورها مع جماعة الإخوان القطرية مبكرا (الجماعة قد حلت نفسها تماما)، وليس لديها شعب بمعنى الكلمة أتعبه الضيم والفقر ومن ثم قد يفكر أن يثور يوما ما!

وعليه انغمست الجزيرة في دعم الثورات بالطريقة التي تتماشى مع سياسات قطر والتي تمايزت من حالة لأخرى:

ففي حالة لبيا دعمت الجزيرة بكل سبيل الثورة، تساوقا مع الموقف العام حينها من القذافي. وفي مصر التي لم تكن علاقتها بنظام مبارك حميمية بالضرورة، دعمتها إعلاميا وسياسيا بقدر

محتشم. في حالة اليمن تساوقت مع خطة مجلس التعاون لتصفية الثورة هناك ولتصير إلى ما إليه صارت. أما في البحرين فقد غضت الطرف بورع كبير عنها، لأنها ومع السعودية ترى أن سقوط البحرين في يد إيران خسارة استراتيجية كبيرة. أما في حالة سوريا فقد صمتت أول شهرين تقريبا من الحراك لإعطاء فرصة ما للدبلوماسية القطرية أن تقنع الأسد بتقديم إصلاحات حقيقية، نظرا لعلاقة الدوحة الطيبة بدمشق آنها (وبما كان يسمى بمحور الممانعة عامة) ولأنها لا تريد أن تخسر علاقتها مع طهران بدعم الثورة على الأسد، ولكنها لما آيست منه، قررت دعم الثورة تماما (كان ثمة لوبي إيراني في داخل المحطة: غسان بن جدو، سامي كليب، وجمانة نمور، غضب بشدة من دعم الجزيرة للثورة السورية، فتركوها وفتحت لهم إيران محطة الميادين.(

وفي هذا السياق راهنت قطر على الإخوان المسلمين كجواد رابح في الثورات العربية، فقررت دعم الجماعة في كل بلد، حتى يكون لها فيما بعد نفوذا واسعا على هذه الدول، مما يرفع من مكانتها الإقليمية. رهان قطر على الإخوان المسلمين، يمثل عامل توتر كبير في علاقتها مع الرياض (يبرز ذلك جليا في الحالة السورية؛ فبالرغم من كون كلاهما يدعم الثورة هناك، إلا أنهما يدعمان فصائل مختلفة؛ فقطر ألقت بثقلها خلف الإخوان، بينما السعودية لم ولن تفعل ذلك أبدا(.

ولكن هذا الرهان كاد أن يخسر أو خسر بالفعل في مصر بسبب الانقلاب العسكري الذي أطاح بالإخوان المسلمين من الحكم. فماذا فعلت إذن مع هذا المتغير؟ لا تستطيع الدوحة أن تقطع تماما مع النظام الانقلابي الجديد (كتركيا مثلا)؛ لأن هذا يتنافى مع مقتضيات دور الوسيط السياسي المذكور آنفا. ولكنها في نفس الآن لا تستطيع أن تضحي بكل استثماراتها السياسية في دعم الإخوان، وهنا تحديدا يأتي دور الجزيرة؛ لتقوم بما لا نستطيع أو بما لا ينبغي أن نقوم به سياسيا، أي القطع مع النظام الانقلابي، فتدعم الجزيرة إعلاميا الإخوان في رحلة

الكفاح ضد الانقلاب بكل ما أوتيت من قوة، وتحارب كذلك سياسات النظام الانقلابي، ولكن في نفس الوقت تظل العلاقات السياسية قائمة بين البلدين بصورة شبه طبيعية.

على هذا المحددات إذن (دور الوسيط، مناكفة الرياض، والقوة الناعمة الاقتصادية والإعلامية) قد أنهضت قطر استراتيجيتها لتأسيس المكانة السياسية التي تطمح فيها.

وأزعم أن مصدر الاستغراب من سياسات قطر: هو الظن بأن ثمة محددا قيميا تنبع منه؛ فيقال: كيف يتأتي لها أن تقف بجوار الشعوب المنهكة في مصر وسوريا، ثم تستضيف القوات الأمريكية، لتذبح شعوب أخرى في العراق وأفغانيستان؟ !

والحال الذي ينبغي أن يعلم أن سياسات قطر (والدولة القومية الحديثة بعامة)، هي سياسات دهرانية/علمانية، قد نهضت على أسس ميكيافيلية، تستبعد أية محددات قيمية (أخلاقية/دينية)، وإنما هي المصلحة المادية وحدها ما يشرط هذه السياسات ويأطرها.

فقطر توالي واشنطن من أجل المصلحة (الحماية الأمنية، النفوذ الإقليمي)، وكذلك تدعم أيضا الثورات من أجل المصلحة (النفوذ الإقليمي)؛ دعمت الثورة المصرية سياسيا وإعلاميا وكافحت الانقلاب إعلاميا من أجل المصلحة. وغضت الطرف عن الثورة في البحرين (مع الإقرار منا بالبعد الطائفي فيها) أيضا من أجل المصلحة. سكتت عن ثورة سوريا شهرين من أجل المصلحة، ثم دعمتها بلا حدود عسكريا وسياسيا وإعلاميا من أجل المصلحة أيضا. تدعم الإخوان ليس من أجل الأيديولوجيا وإنما من أجل المصلحة، تأوي الشيوخ والرموز من هنا وهناك، ليس حبا في دين الله، ولكن فقط من أجل المصلحة. وفي كلمة: ليس ثمة دور للقيمة هنا في تحديد الفعل والترك، وإنما هي المصلحة والمصلحة وحدها، فأعرف ما هي المصلحة تعرف لماذا فعلت أو لماذا لم تفعل..

٣-كل شيء في مكانه لم يبرحه بعد، الإغريق يقولون"nil sub sole novum" :، ونحن نقولها: "لا جديد تحت الشمس". كيف تحتمل الحياة هذا القدر المريع من الرتابة؟ نتساءل نحن دوما: كيف نحتمل هذه الحياة؟ ولكن هل فكرنا مرة: كيف لهذه الحياة أن تحتملنا نحن؟

لا تزال الأم تشتكي حد القهر من صعوبة مراس أطفالها، ثم تبكي حد الجنون عندما يُصيب واحدًا منهم وجع ما! لا يزال أحدهم يبحث عن زوجه تخلصه من غربته، ولا يزال آخر يبحث عن غربة تخلصه من زوجته!

لا تزال دموعهم على أحبائهم ترطب وجنة الفراق الذي جاء قبل الأوان، بالقتل في رابعة أو بالسجن بعدها.

لا تزال تغار من صديقتها التي تأخذ كتاباتها هنا "likes" أكثر منها؛ لأن ذلك بالنسبة لها غير مفهوم بالمرة! ولا يزال هو مستاء بشدة من قلة عدد المتابعين له هنا؛ فبحسبه هذا أمر غير مبرر تماما!

"نادال" لا يزال يذل أنف "فيدرير"، ثم يأتي "ديوكوفيتش" ليشفي صدر الأخير بطريقة غير مقصودة في واقع الأمر!

"عدلي منصور" أو أيًا كان مسماه لا يزال يبحث عما يزجي به وقت الفراغ. وآخرون ما زالوا يتساءلون وبكل جدية: هل حقا قد مات "السيسي"؟ بعدما انطفأت جذوة السؤال الأخير:"ثورة دي ولا انقلاب؟" فقط بعد مشاهدة الحلقة الأولى والأخيرة من برنامج "باسم يوسف"، الذي لم يحسم البعض أمره بعد!

"ليبرمان" قد عاد من رحلة قضائية مريرة لتوه، ليكون وزيرا للخارجية من جديد، حقا يليق "حارس المواخير" هذا، كما يروق لـ"جهاد الخازن" أن ينعته دوما، القادم من عالم روسيا السفلي، كواجهة لدولة كإسرائيل..

صباح الحياة أيًا كان لونها وأيًا كان طعمها، فستبقى هي الحياة وسنبقى نحن من يحياها!!

٤-أينما يممت وجهك، تجد فعل التفلسف قد بات محلا للذم والرفض وأحيانا للسخرية، حتى صارت الفلسفة يُنظر إليها نظرة دنيا؛ كأنها ترف فكري أو لغو يجدر بنا أن نعرض عنه، وننشغل بما سواه من الأعمال الصالحة. ومن ثمة صار المشتغلون بالفلسفة "يتامى هوويين" بتعبير "فتحي المسكيني"! أي أنك لا تجد لهم في أفق ثقافتنا موطنا هو بهم يليق، فالكل عنهم معرض، كإعراضنا عن يتيم مشرد بلا مأوى!

وفي هذا السياق، أنت واجد قولا غاية في الطرافة لـ"الملك السري للفلسفة" كما يروق لتلميذته وحبيبته الفيلسوفة "حنة أرندت" أن تسمه، أتحدث عن صاحب "الكينونة والزمان": "مارتن هايدجر"، يقول فيلسوف الغابة السوداء :

"إن رفض الفلسفة بشكل مطلق، هو موقف يستحق دوما الإحترام؛ لأنه يحتوي من الفلسفة على أكثر مما يدرك رافضها!!"

٥-"عمري أقصر من طموحي"، اشتكى "الجنوبي" ذات قصيد..

لماذا تضيق علينا أرض الزمانِ بما رحبت؟ ننظر لماضينا بقدر ما من الاستغراب؛ ويكأنه نص لم نكتبه لكننا وقعنا عليه! نلومه دوما: كان يُفترض أن يكون أجمل مما كان، ثمة تعديلات نود أن ندخلها على مساره من حينٍ لآخر، بالرغم من كوننا نعلم تماما أنه قد وصل لنقطة النهاية، وقضي الأمر!

في الحاضر؛ نحيا ولا نحيا؛ ثمة فصلُ ناقصُ دوما، بدونه أبدا لا تكتمل الحكاية. نبحثُ عن أشياءٍ لا نجدها، ونجد أشياءً لا نبحثُ عنها! في عجلة من أمره اليوم؛ ربما يفتقد قدرا معقولا من الهوية يرمم به ماهيته المجروحة بالنقصان؟ معلق هو بين أمس لم يختره، وغدٍ لا يعلم عنه شيئاً! قد ضُرب بينه وبين الأمس بسور له باب، فقط لتتنفس منه الذاكرة. والغد زمان نهم يأكله بسرعة، وينفيه مع باقي إخوته في سجن الماضي!

لماذا لا ينتظر الغد ولو لبرهة حتى نستعد له كما ينبغي؟ لماذا لا يترك لنا فسحة لنختار ما نريد أن نكون؟ غامض هو كاسمه: غد، حرفان، ولكن فيهما حزم يليق بمن لا يُرد!

على متنها نشق عباب العمر: الحياة، ولكن هل نحن ملاحون حقا دفتنا ملك لليمين، أم أننا محض مسافرون يحملون أمتعتهم: الذكرى والأمل؟ أيهما أخف: حقائب الذكرى أم حقائب الأمل؟ لو طلب منا أن نتخلص من إحداهما، أيهما سنلقي في البحر؟ عسير هو أن تختار بين ذكراك وأملك!

لو كان ملاحا لما أحبها؛ كان كلما عاتبوه فيها، أجاب بلسان "درويش": "رزقت مع الخبز حبك"! ولا ملام في الرزق. مسافرون نحن وإلا ما انسقنا وراء عاطفة يقول "ديكنز": "أن من سرها: أنها تسير بنا في طريق الخلاص، مهما يكن نصيب التهلكة في نهاية الدرب!!" نعلم أن التهلكة تنتظرنا، ولكن ومع ذلك لا نرى ثمة إلا الخلاص! حقا لا أحد يغرق بالليل وإنما بالنهار؛ قال "ماتشادو" ذات قصيد: "في البحر الذي يُسمى المرأة/قليل من الرجال تتحطم سفنهم في الليل/أكثرهم عند شروق الشمس!!"

٦-"حتى الطاغية يحتاج إلى خطيب متصنع، وإلى سفسطائي؛ كي يعطي سندا كلاميا لمشروعه في الترغيب والترهيب." (بول ريكور(

يتضمن هذا الاقتباس إضاءة لافتة من علامة التأويل الفرنسي، وواحد من أشهر فلاسفة التقليد القاري المعاصرين: "بول ريكور". ذاك المتهم دوما في "إيمانه الفلسفي"، من قبل أقرانه ومجايليه؛ إذ لا يرون في منتجه الفلسفي سوى "لاهوتًا متخفيًا"! فصاحب "الذاكرة، التاريخ، والنسيان" بحسبهم يشتغل في اللاهوت وليس في الفلسفة! حتى أن "جان بول سارتر"، عندما أراد أن يُعرف ب"ريكور"، قال ذات مبالغة: "هو كاهن مهتم بالفلسفة"!! (لعلك تجد في هذا الاقتباس ما يعد قرينة تؤكد هذه التهمة؛ فهو مثقل بألفاظ مستعارة من المعجم اللاهوتي: طاغية، ترغيب، وترهيب(!

وفي واقع الأمر، أننا لو دققنا النظر ، سنجد أن ذاك الذي يتفلسف على وقع المطرقة، كما يروق له أن يسم اشتغاله الفلسفي، أتحدث عن "نيتشه"، هو أول من سن سنة اتهام الفلاسفة بكونهم قد تلبسوا بالاهوت؛ فعلى وجه العموم تجده يقول أن الفلسفة الأوروبية برمتها "تجري في عروقها دماء اللاهوتيين". وكذلك تراه يشنع على كل الفلاسفة قائلاً: "الفيلسوف ما هو إلا قس متخفي"! وعلى وجه الخصوص تراه يسعى جاهدا لتثبيت هذه التهمة على الفلاسفة الألمان والفلسفة الألمانية تحديدا؛ فبحسبه: أننا لو تحققنا من أمر الفلسفة الألمانية، سنجد أن معهد "توبنجن" لدراسة اللاهوت يقف خلفها، وإليه يُرجع أمرها؛ فهذا المعهد هو الذي تخرج منه "كانط"، وباقي الفلاسفة المثاليين (فيشته، شيلنج، وهيجل) إنما خرجوا أجمعين من معطف "كانط."

على أية حال، فإن الإضاءة الأنيقة التي يتضمنها هذا الاقتباس من "ريكور" تكمن في قوله: "وإلى سفسطائي": فقد يكون مستساغا تماما أن يحتاج الطاغية إلى "الخطيب المتصنع" (مثقف السلطة)؛ ليوفر الغطاء النظري لممارساته. ولكن ما حاجته إلى هذا السفسطائي؟ هنا تكمن المفارقة؛ فبالرغم من كون الدولة الحديثة هي نتاج لصيرورة "العقلنة" (و"الحدثنة") في المجتمعات الأوروبية، بحسب "ماكس فيبر" ، والتي تتمثل عنده في "نزع الغلالة السحرية عن العالم "(enchantment) أو قل بلغة أكثر تداولية مع فيلسوفنا "طه عبد الرحمن": "تبصير العالم"، لا تزال هذه الدولة تتوسل بخطاب لاعقلاني لتمرير سياساتها، التي تتسم بالاعقلانية، فبالرغم من كونها نتاج الحداثة والعقلانية، إلا أنها لا تزال بعد في ممارساتها وخطابها متلبسة باللاعقلانية!

وهذا الحال يختلف من دولة لأخرى، وبلا شك تزداد الأمور سوءً في حالة الدول العربية (إن جاز وسمها بالدولة)، إذ تتجلى بوضوح مظاهر اللاعقلانية هذه، خاصة عندما يكون لدينا مجتمع وعيه الجمعي قابلا لل"أسطرة" بدرجة كبيرة، والمحتوى اللاعقلاني فيه مستواه مرتفع بشدة؛ إذ تراه يبدي قدرة مذهلة في واقع الأمر، على التعاطي مع المتناقضات والانسجام

معها؛ فطبيعي تماما أن تجد من يصدق بأذنيه ما تكذبه عيناه، ويكذب بلسانه ما تصدقه عيناه! (ولعلك تجد في حالة مصر ما بعد الانقلاب نموذجا مثاليا لذلك الوضع) وهنا تحديدا يأتي دور "السفسطائي"؛ ليقدم خطابا لاعقلانيًا يسوغ به ممارسة لاعقلانية، ويقنع به جمهورًا لاعقلانيًا!!

٧-من لطيف استدلال أهل السنة، على ثبوت صفة الكلام للحق سبحانه: قوله تعالى: "أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا"!؟
إذ جعل من عجز عجل السامري عن الكلام، آية على عدم أهليته للعبادة، ونقص متحقق فيه لا يليق بإله.
ولسان الحال: كيف يكون إله وهو لا يتكلم: "أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا"!؟ مفعمة هي بالاستنكار، استنكار يليق بمن تجاوز بداهة عقلية: لا إله لا يتكلم.
وحده "موسى" يشعر تماما بهذه الحجة؛ فهو للتو عائد من حوار مع الإله الحق، وسمع منه حتى ارتوى! فلا عجب إذن أن يغضب لحدود دفعته لإلقاء ألواحه، التي كتب له فيها من كل شيء!

٨-"الكسندر بوشكين"، أمير شعراء روسيا، وأديبها المؤسس، عندما ارتضى الموت من أجل حبيبته، في مبارزة مع من نافسه عليها يوما ما، هل كانت حقا تستحق أن يغادر الدنيا من أجلها؟ أم أن "بوشكين" قد مات هدرا؟ كيف كان لون عينيها؟ يقولون أن الحب وهم، مذ متى صار الوهم قتالا؟ من سيقرأ قصائده التي لم يكتبها؟ هل تتحمل هي وزر من حُرموا من قراءة رواياته؟ أم أن لومها لنفسها يغفر لها كل جناية؟ هل هي حقا قد فهمت لماذا فعل "بوشكين" ما فعل؟ وحدها لا يُحتمل منها أي قدر من الاستغراب، أما نحن فلا بأس أن نقول فيه – وهذه عادتنا– : إنه لمجنون!!

٩-بالرغم من حرصي الشديد على عدم استحضار فيلسوف فرنسا المشاغب: "جاك دريدا"، في سياق السياسات المصرية بكثرة؛ حتى لا أكون ملولا وثرثارا، بدرجة غير محتملة، إلا أنني، وفي واقع الأمر، لم أتمكن من كبح جماح نفسي عن استدراج "جاكي" لأفقنا الراهن، هذه المرة:

فأن تدعو الدولة وجهازها الأمني للاحتفال بذكرى واقعة "محمد محمود"، والتي وللمناسبة هي الواقعة التي تعرضت لأعظم قدر من الابتذال السياسي، في التاريخ الحديث، لهو أمر مذهل لأبعد الحدود، ويضفي قدرا كبيرا من الدهشة والأسطورية على هذه السردية الأصيلة!

أقصى ما تمكن "جاكي" من فعله: أنه أقر بوجود معنى ما، ولكنه مشتت، مختلف، مرجأ على الدوام، لا يمكن القبض عليه بحال؛ فالمدلولات قد فارقت دوالها وللأبد، ثمة شرخ لا يمكن ردمه بين كل دال ومدلوله، وبدرجة ما من التجريد تصير عاقبة الأمور، موات المعنى وقبره بلا رجعة!

هنا، وفي أفق واقعة "محمد محمود"يتبدى التفكيك وبصورة بشعة صراحة: القاتل يدشن احتفالية فخمة ليؤبن فيها من ذبح رقابهم بيديه يوما ما، بالرغم من أنه لم يمض على ذلك دهر، حتى تختلط علينا التفاصيل، فننسى من قتل ومن قُتل!

فيدعو إلى حفلته، وبلا حرج، ويكأن دعوته منطقية تماما! الآن ضاع المعنى بمرة؛ لم يعد لكلمة قاتل أية دلالة، ولم يعد لكلمة مقتول أية دلالة، سيقف كلاهما ليحتفل بذكرى واحدة! سيقف الشرطي لينعي من ذبحهم، أمام جدار، لا يزال مزين ببقايا "جرافتي" يصب عليه اللعنات. وسيقف الشعب المقتول من حوله، ليصفق، ويغني له: "تسلم الأيادي!!"

هنا لم يفارق الدال المدلول فقط، وإنما تم وهب الدال مدلولا مضادا تماما؛ قاتل يؤبن من قتله، وذو المقتول يصفق بحرارة ويغني له!!

ثمة قدر مهول من اللاعقلانية، يسكن أفقنا الراهن، وينذر بمخاطر عدة تهدد المعنى، وتجعلنا أشد ضررا عليه من "دريدا" نفسه!

١٠-*السياسة في مقام الفناء، أو هل صارت القاهرة وكيلًا للرياض؟

لماذا تسعى القاهرة للقضاء على الجزء المتبقي من علاقتها مع تركيا؟ وهل حقا ستعود مصر لحضن موسكو، بعد طول خصام؟ وعامة، كيف نفهم السياسة الخارجية لنظام ما بعد الانقلاب؟

من المعلوم أن مفهوم "المصلحة الوطنية(national interest)"، هو المفهوم الأساس لدى المدرسة الواقعية، في حقل العلاقات الدولية. وهو مفهوم يستجمع بداخله شبكة المصالح الأمنية والاقتصادية والثقافية التي تبلورت لدولة ما، وتتسم بقدر عالٍ من الثبوت، بحيث لا تتأثر بدرجة جذرية بطبيعة التغير في النخب الحاكمة. هذه الشبكة هي التي تحدد وتشرط كل التفاعلات السياسية بين الدول، فبحسب الواقعيين، كل دولة ترسم سياستها الخارجية، بناءً على ما يخدم مصلحتها الوطنية وفقط. ومن ثم عند سعينا لفهم السياسة الخارجية لدولة معينة، علينا أن نقف أولًا على تفاصيل مصلحتها الوطنية، وآنها يكون بمكنتنا أن نفهم لماذا تفعل أو لماذا لم تفعل على الصعيد الخارجي.

ومن المؤسف حقا، أن دولة كمصر قد عمل حكامها مع الوقت، بقدر كبير من البراعة على تفكيك مصلحتها الوطنية؛ بحيث لم يعد ثمة كتلة صلبة من المصالح، ترسم خارطة السياسة الخارجية لها. ومن ثم وعلى طول مسارها تعرقلت دوما في شباك التبعية للقوى العظمى (الاتحاد السوفيتي مع ناصر، أمريكا مع السادات ومبارك، ولم يتسع الوقت لمرسي كي يبدي وجهة نظره في هذا الشأن!)؛ أي أن قرارها السياسي الخارجي، كان مرهونًا بدرجة كبيرة بقرار دول أخرى، وليس نابعًا من مصلحتها الوطنية، كما ينبغي للدولة الحديثة أن تكون!

والحال، أن نظام ما بعد الانقلاب، قد أكمل عملية تصفية المصطلحة الوطنية هذه، ووقع في هوة تبعية ما لها من قرار، ولكن تبعية لمن يا ترى هذه المرة؟

إنها السعودية (وبالتبع الإمارات والكويت)، راعي الانقلاب ومموله الرئيس، والمتكفل بالحفاظ

على الاقتصاد المصري الواقف على الحافة، من الانهيار. ومن ثم لكي نفهم ويا للمفارقة السياسة الخارجية المصرية راهنا علينا أن نفهم أولًا السياسة الخارجية السعودية!

أولا؛ فيما يخص الملف الروسي:

في ظل غضبة الرياض من واشنطن الأخيرة (يمكن مراجعة تعليق لي هنا بعنوان: واشنطن والرياض: هل هو خصام أزواج؟) اشتغلت الرياض على محورين كيما ترمم ما أفسدته واشنطن:

الأول؛ يتعلق بالملف النووي الإيراني، ففي سعيها لإفساد اللقاءات الحميمة بين إيران ومجموعة ٥+١ (الدول الخمس دائمة العضوية+ألمانيا)، استثمرت الرياض في موقف باريس المتشدد حيال هذا الملف، والتفت حول واشنطن، لتوكل لباريس مهمة إفساد جولة المفاوضات الراهنة، والتي يُعول عليها كثيرا، وبالفعل كادت فرنسا أن تهدم اللعبة، إلا أن ثمة بشائر على الاتفاق تلوح بالأفق، مما قد يعني ضياع أمل الرياض. ومن باب المفارقات؛ أن الرياض تتناغم استراتيجيتها هذه تماما مع موقف إسرائيل؛ فكلاهما يحلم بأن تدفن هذه المفاوضات في مهدها!

أما المحور الثاني وهو الذي يعنينا في واقع الأمر، فهو الملف السوري؛ فالرياض بعدما خيبت واشنطن آمالها، يممت وجها شطر موسكو لعلها تتمكن من إقناعها بالتخلي عن الأسد، مقابل عطايا مادية من الرياض، هذه العطايا طبعا ستتم على شكل صفقات سلاح . وهنا تحديدا يأتي دور مصر، كيف؟

قد يجادل البعض، بأن توجه القاهرة نحو موسكو، هو ردة فعل جريئة من قبل الجنرالات، على عدم وقوف واشنطن بجوارهم كما ينبغي، ومن ثم أرادوا أن يصفعوا الأخيرة على وجهها: للتو لسنا منكم ولستم منا، وها هي موسكو تفتح لنا ذراعيها.

ولكن حقيقة أرى أن هذا التحليل قاصر ويفتقد لقدر غير يسير من المعقولية؛ فمن ناحية موسكو طبعا الأمر بمثابة فرصة ذهبية لها؛ إذ تفسح لنفسها مكانا في منطقة الشرق

الأوسط، التي ظلت حتى الآن حكرا على الهيمنة الأمريكية، في إطار صراعها العام مع واشنطن على النفوذ. أي أنها مستفيدة من هذا التقارب على كل حال، ولكن في المقابل، ماذا ستستفيد القاهرة؟ الجواب لا شيء؛ ففيما يخص صفقات السلاح، فنظم التسليح الأساسية للجيش المصري، هي نظم أمريكية تماما، ومن ثم لن يكون من اليسير أن تتأقلم معها الأسلحة الروسية، والسؤال الأهم: لماذا تحتاج مصر إلى السلاح أصلا؟ ومن ذا الذي ستحاربه به؟ لا أحد! فقط الاستفادة الوحيدة، أن روسيا ستمدها بالأسلحة والمركبات التي تعينها على قتل المتظاهرين وسحقهم! وطبعا ستكون السعودية هي المتكفل المالي لأية صفقات بين مصر وروسيا، فمن أين سيأتي الجنرال بالأموال كي يشتري سلاح ليس له عدو يقتله به، وهو لا يجد ما يطعم به شعبه؟! أي أنه وعلى التحقيق الرياض هي التي تشتري من روسيا وليست مصر سوى مجرد واجهة!

فالرياض تبتز موسكو بجزرة مصر ولا أكثر! وعليه فمسرحية التقارب الروسي-المصري هذه لم يكتب نصها ولم يخرجها إلا الرياض، والقاهرة مجرد ممثل على خشبة المسرح ولا غير!

ثانيا؛ فيما يخص الملف التركي:

من المعلوم أن ثمة ثلاث قوى (سوى إسرائيل) تتصارع فيما بينها على السطوة والنفوذ في الإقليم: السعودية، تركيا، وإيران. وفي هذا السياق ليست الرياض مرتاحة أبدا لتمدد أنقرة في الإقليم، خاصة أنها تنازعها على قيمتها الرمزية، بوصفها زعيمة العالم السني وحامية حماه. والذي يعنينا في هذا السياق، أن السعودية لا ترضى أبدا عن سلوك تركيا مع جماعة الإخوان المسلمين، إذ تمثل الداعم الأهم للجماعة ومأوى أفرادها من بعد الانقلاب العسكري.

وما أجادل به، أنه وبالرغم من كون القاهرة غاضبة تماما من سلوك أنقرة معها منذ الانقلاب، إلا أنها لم تكن لتقدم على خطوة قطع علاقتها معها، بدون رضا الرياض أو قل بإيعاز منها. فلو شئنا التحقيق، سنجد أن أنقرة مفيدة لمصر، اقتصاديا على الأقل أكثر من دول الخليج؛ ذلك لأن قيمتها تتمثل في نشاطات استثمارية دائمة، بينما دول الخليج لا

تحسن سوى التوقيع على الشيكات !

ومن ثم فقطع العلاقات مع تركيا يصب في مجرى المصالح السعودية ووحدها، ولن يعود على مصالح مصر بأية إفادة، إن لم نقل إنه سيضر بها.

وعليه فخلاصة ما أرمي إليه، أن علاقة القاهرة بالرياض صارت هي المحدد الأساس لمجمل السياسة الخارجية المصرية، في وضعيه لو جاز لنا أن نستعير من المعجم الصوفي، سنصفها ب"الفناء"؛ أي أن إرادة السياسة الخارجية المصرية قد "فنت" في السياسات السعودية، مما قد يوصلها في نهاية المطاف إلى أن تكون مجرد ذراع أو وكيل سياسي لها!!

١١-لماذا تضيق الشوارع بنا؟ ربما لأن أفق أنفسنا لم يعد يتسع لنا، فبتنا لا نرى من الأشياء إلا ضيقها! لا شيء سيتسع لك لو ضاقت بك نفسك.

ولكن كيف تسعنا أنفسنا وقد قرر"أدونيس" ذات قصيد، أنه: "لا مكان يتسع لوحدتك، وحده الزمن"! لا تعول إذن على مكان مهما اتسع، ليسمع منك حكاياتك البعيدة. إنه الزمن، ذاك الأبدي المسمى، وحده قادر على الإصغاء لحنينك الصامت.

هل حقا قد ينوب الزمان عن المكان؟ ولِمَ لا و"ابن عربي" يحاول أن يقنعنا بمدى قربهما، فيقول ذات تجلٍ: "الزمان مكان سائل، والمكان زمان قد تجمد!!"

كل هؤلاء في الشوارع، مقبلين ومدبرين، قادمين من مكان ما أو من لا مكان، لا فرق في واقع الأمر، ذاهبين أيضا لمكان أو لا مكان آخر! وفيما بينهما يتسولون الحياة من على رصيف الزمن!

من منا يمتص الآخر: نحن أم الحياة؟ نظرة في وجوه العابرين تنبئك بالجواب!

هل تتذكر الطرق خطانا، تلك الشاهدة على أوجاعنا وأحلامنا المؤجلة على الدوام؟ هل تحن إلينا؟ أم تنسانا كما ننساها؟ كيف تميز بين أقدامنا، حتى لا تنسب خطوة غادرة لعابر بريء؟

١٢-طورت عملاق الإنترنت الأمريكية "Google" مؤخرا، برنامجا خاصا بالـfacebook، يقوم بنفس التفاعلات التي يقوم بها صاحب الحساب؛ أي أنه يرد على الرسائل، ويعلق على المنشورات،...إلخ. بمعنى أنك حال استخدام هذا البرنامج، يمكنك أن تغيب عن هذا العالم، بينما يحل هو محلك؛ فيفعل ما كنت تفعله تماما!

لست منشغلا حقيقة بمدى طرافة البرنامج، ولا قيمته الإبداعية. ولكن ما لفت نظري، أن اختراع هكذا برنامج يستبطن الدلالة الآتية:

أنك يجب أن تكون هنا، ولو غبت لسبب أو لآخر ينبغي أن يكون ثمة من ينوب عنك. أي أن وجودك هنا لم يعد تزجية لوقت الفراغ مثلا، أو نشاط من جملة مناشطك المختلفة، تقوم به وقتما تشاء وتدعه وقتما تشاء، وإنما هو وجود أصيل وأساسي.

هذه الدلالة ذكرتني بجملة حوارية (قد أشرت إليها، في نفس السياق منذ فترة طويلة، هنا)، للعبقري "كريس. نولان"، في واحد من أهم أعماله على الإطلاق، وعلامة مائزة حقا، في مسار الفن السابع برمته، أتحدث عن"inception" :

جاءت الجملة على لسان أحد الشخوص، مخاطبا صاحب الحظ الميسور دوما "ل. ديكابريو" (كوب)، في مشهد اختبار مقدرة منوم ما على تحقيق درجة عالية من النوم العميق، الذي يسمح لمن يتناوله بأن يحلم بصورة مستقرة. المشهد في ورشة "يوسف" الكميائي المختص بصنع هذا النمط من المنومات. إذ ثمة مجموعة من الأفراد نائمين في حلم مشترك بينهما. يسأل "كوب" عنهم "يوسف": هل يأتون هنا كل يومليناموا؟ فيجيب هذا الشخص الغمر تماما، ومجهول الهوية، بهذه الجملة الفاتنة :

"إنهم لا يأتون هنا كي يناموا، بل ليستيقظوا؛ فالحلم قد صار هو واقعهم"!

يبدو أن هذا الكوكب الأزرق قد صار هو واقعنا، حضورنا هنا هو الأصل، وغيابنا مجرد استثناء عابر !

استثناء، فكرت "Google"أن تعالجه، فقررت أن تهبنا برنامجا يغطي هذا الغياب، حتى يصير حضورنا هنا مكتملا، حضور يليق بمن ضاق عليهم واقع الحياة!!

١٣-بالرغم من كون الفيلسوف الألماني الأشهر "ف. نيتشه"، قد اشتهر بموقفه السلبي اتجاه المفاهيم الفلسفية؛ إذ أنه قد ناصب فكرة النسق العداء، وسعى للهروب منها ولو بشق الأنفس؛ لذلك أنت تجد فيلسوفنا لم يكتب قط بصورة نسقية، وأمهات كتبه ما هي إلا شذرات، قد يحسبها من ليس له عناية بفكره، أشعارا، أو خواطر لم تكتمل، أو حتى قد يراها محض هذي قد جمعه الرجل في كتاب، لسبب غير معلوم!

وقد كان"نيتشه" يوبخ فلاسفه عصره؛ واسما إياهم ب"شغيلة المفاهيم"، الذين انتجوا "فلسفة رمادية"، لا تغني ولا تسمن من جوع!

أقول، بالرغم من ذلك، إلا أنك لو قرأت نيتشه بطريقة نسقية، كما كان يوصي دوما طلابه ومريديه، وكما كان يؤمل هو، أن يأتي اليوم الذي تُدرس فيه أعماله بنفس الصرامة والجدة التي تُدرس بها الأعمال الفلسفية الكلاسيكية، كأعمال " أرسطو" مثلا= ستظفر آنها ببنية مفاهيمية ينتظم فيها فكر الرجل.

وفي هذا السياق، أنت واجد مفهوما غاية في الطرافة، لدى "نيتشه"، مفهوم: "التمكين في الأرض"، وتكمن طرافة هذا المفهوم في ذينك النقطتين:

الأولى؛ أنه مفهوما قادما من معجم الملة؛ فهو مفهوم ديني بامتياز، حري به أن نلقاه في أدبيات "الصحوة الإسلامية"، لا أن نلقاه في نصوص واحد من أهم رواد الإلحاد، الذين مروا من على ظهر هذه الأرض يوما ما!

والثانية؛ تتمثل في الدلالة التي حملها "نيتشه" لهذا المفهوم، إذ قصد به الآتي:

بعدما حقق فيلسوفنا مليا كل الحيثيات التي تحتم على الغرب معها أن يكون مصيره السقوط في هوة العدمية، التي ما لها من قرار، حاول أن يبحث عن مخرج من هذا المصير الذي لم يكن منه بد.

وقد تمثل هذا المخرج لدى "نيتشه" في العمل على إنتاج طراز من البشر، بتهذيبه وتربيته على أسس جديدة تتنافى تماما مع تلك الأسس الذي يعيش عليها الإنسان الراهن ، الساقط في براثن العدمية، والذي يرمز له دوما بمصطلح"الإنسان الأخير."

وستكون مهمة هذا الطراز الجديد من البشر بعد صناعته، والذي يرمز إليه بمصطلح "الإنسان الأعلى"، هي قلب كل القيم التي بناها الإنسان الأخير، وإعادة تأسيس قيم جديدة تماما.

ولكي يقوم هذا الطراز من البشر بمهمته، لابد أن تكون له السطوة والسيطرة التامة في المجتمع، وهذا ما عناه تحديدا ب" التمكين في الأرض"؛ أي التمكين لهذا الطراز الرفيع من البشر، كيما ينفذ ما يسميه بـ"السياسات الكبرى"، أي قلب قيم الإنسان الأخير بأجمعها، سعيا للخروج من تيه العدمية الذي طال..

وبعد، وبغض النظر عن المضمون الفلسفي لهذا المفهوم، والذي ينبغي أن يُفهم في سياق فكر "نيتشه" في كليته، إلا أنه من المفارقات، أن تجد ثمة قدر غير يسيرمن الوجاهة، في مقارنة هذه الفكرة النيتشوية في إطارها العام، بروافد الفكر الإحيائي للحركات الإسلامية المعاصرة، خاصة مع لحظة "سيد قطب:"

فبحسب "قطب"، ثمة مجتمع جاهلي معاصر، يمكن مقابلته بالمجتمع العدمي لدى نيتشه، ينبغي أن يتم تحريره من جاهليته هذه، كما الحال عند نيتشه في مجتمعه، الذي ينبغي أن يخرج هو الآخر من عدميته.

عملية الإحياء هذه تحتاج بحسب الخطاب القطبي أولا لتربية "الجماعة المؤمنة"، والتي توازي في الخطاب النيتشوي طراز "الإنسان الأعلى"، هذه الجماعة المؤمنة هي التي سيناط بها

"قلب" قيم هذا المجتمع لإنقاذه من جاهليته، برده إلى شرع الله. كما أن طراز نيتشه الأعلى سيقوم هو الآخر بـ"قلب" قيم الإنسان الأخير؛ لإنقاذه من عدميته، برده إلى شرعه "ديونيسيوس" وسنته!

وجماعة "قطب" المؤمنة يُنتظر لها أن يُمكن لها في الأرض؛ لتقوم بمهمتها، كما أن إنسان "نيتشه" الأعلى يُنتظر أن يُمكن له هو الآخر؛ ليقوم بمهمته!!

١٤-لكل ربيعِ الخريف الذي يهزمه، ولكل أملِ القدر الذي يهزمه. هل نحن ضحايا ما نريده؟ أن تريد يعني أن تتهيأ للخسارة. عندما نأمل فنحن ودونما أن ندري، ننصب لأرواحنا أفخاخًا من الوجع، لنسقط في واحدٍ منها يوما ما!

"أبو اليزيد" احتاط لنفسه مبكرًا؛ فقال له ذات مناجاة: "أريد ألا أريد غير ما تريد"؛ تخلص تام من غريزة الأنا، فقط يطمع في أن تفنى إرادته في أقداره الشرعية؛ فيحب ما يحبه ويبغض ما يبغضه. وفي أقداره الكونية؛ فيرضى بما تأتيه به الحياة. هل فقد "أبو اليزيد" نفسه أم أنه على الحقيقة قد وجدها بأكملها؟ فأن تغيب عنها، يعني أن تظفر بها!

"الرافعي" قد سار على نفس الدرب وقرر ذات وجع: "تتم آمالنا ما لم نؤمل"؛ حالة واحدة التي نضمن فيها أن نحوز كل ما نطمع فيه: أن لا نطمع في شيء ابتداءً!، تخلص تام من غريزة الأمل، الأمل هو ألم ولكنه لذيذ!

لماذا لا نتعلم من الفراشات؟ لا تريد هي من السماء سوى قبلة من شمس الصباح! أو لماذا لا نقتدي بالورود؟ تنفق عطرها ولا تنتظر أي مقابل؛ من منا دفع لها يوما ما؟

ولكن أن تحيا يعني أن تريد ولا مناص، فقط أكمل الجملة: أن تحيا يعني أن تريد..وأن تخيب. إن لم تستطع أن تلبي نداء: "خلِ نفسك وتعال"، فدرب روحك بعناية على انتظار ما لن يجيء، على أن تكسب مرة وأن تخيب مرات. "مارسيل بروست" في "بحثه عن الزمن

الضائع" قرر "إن هذه الحياة لا تُنال أبدًا بأجمعها"؛ ما دمت هنا فلا سبيل لإكمال الحكاية، أنت في بحثٍ دائم عن خاتمة تليق، لفصول ناقصة على الدوام!

"درويش" كان فاتنًا في "جداريته" الأخيرة حين خاطبها :

"سيري ببطء يا حياة؛ لكي أراكِ بكامل النقصان حولي..

كم نسيتكِ في خضمك، باحثا عني وعنك!

وكلما أدركت سرًا منك، قلتُ بقسوةٍ: ما أجهلك !

قل للغياب: نقصتني، وأنا حضرتُ لأكملك".

صباح من يقبلون الحياة بوجعها وفرحها، بصمتها وكلامها، بودها وخصامها، بعنادها، بعسلها ومرها..صباح من يتقنون صنعة الرضا والصبر الجميل..صباح من يعيشون لأي شيء سوى أنفسهم!

١٥- *العلمنة بين زمنين: محنة رجل الدين

ثمة مفارقة طريفة يمكن لحظها، بين القيمة الرمزية لرجل الدين (بالمعنى الكهنوتي المسيحي، أو بمعنى العالِم/الشيخ والداعية الإسلامي) في المجال العام وبين علاقته بالسياسة، في آنين زمنيين غاية في التباعد: الأول؛ هو لحظة ولادة الحداثة الغربية على حواف القرون والوسطى.

والثاني؛ هو لحظة اشتغال الشيوخ السلفيين بالسياسية فيما بعد ثورات (ما كان!) ربيعًا عربيًا؛ في اللحظة الأولى، أعنى لحظة الحداثة الغربية، تم إفقار السلطة الرمزية لرجال الدين، عبر آليتين، داخلية وخارجية؛ أما الداخلية، فهي تتعلق بحركات الإصلاح الديني (البروتستانتية)؛ إذ عملت على إخلاء المسافة ما بين الله و/ أو الكتاب المقدس والمؤمنين، من سلطة رجل الدين.

أما الخارجية (وهي ما تعنينا هنا)، فهي تتعلق بفعل "العلمنة" الذي شرط صيرورة الحداثة الغربية من لحظتها الأولى، وحتى الراهن. وعندما نقول "علمنة" من "علمانية"، فنحن لا

نقصد بها ترجمة كلمة(secularism) ، بحسب ما هو شائع؛ إذ أن الترجمة الصحيحة لهذه الأخيرة هي: "دنيوة" (فتحي المسكيني)، أو "دنونة" (محمد الشيخ)، أو "دنيانية" (طه عبد الرحمان)، أو "دهرانية" (عزمي بشارة)، وكلها مترادفات مشتقة من "الدنيا" أو "الدهر"، أي الزمن الراهن، وهذه الترجمات توافق الجذر اللاتيني الذي اشتقت منه الكلمة الإنكليزية أو الفرنسية، على عكس كلمة "علمانية"، والتي لا تفي بدلالة هذا المصطلح، ولا تصلح أن تكون وعاءً عربيًا له.

وتنتظم دلالة هذا المصطلح، حول: اعتبار هذه الحياة الدنيا، هذا الزمن، فرصتنا الوحيدة لنعيش، فهي حياة أولى وأخيرة، وهو زمن نهائي، محرر من أي أفق انتظار لزمن ميتافيزيقي آخر سيأتي بعدما نموت. وعليه فلا مكان يتسع هنا لسلطة ما يتجاوز هذا الزمن، أي الدين، على أي مجال من مجالات الحياة.

بينما مصطلح "علمانية"، فهو أقرب لمعنى مصطلح (laicite) أو "لائكية" الفرنسي، وهو خاص بإبعاد سلطة الدين عن المجال السياسي تحديدًا .

والحال أننا في هذا السياق نقصد المعنى الثاني، لنقول بأن فعل "العلمنة" الذي شرط مسار الحداثة الغربية، قد عمل على نفي المؤسسة الدينية بكنائسها ورجالاتها من قارة السياسية وإلى الأبد. ومن ثمة فقد رجل الدين سلطته الرمزية في المجال العام، وصارت فاعليته تقتصر على أبعاد هامشية وروحية في الحياة.

إذن، إقصاء الرجل الدين في السياق الأوروبي (بوصفه يملك سلطة مقدسة، لا بوصفه محض رجل)، من ساحة السياسة، قد نتج عنه إفقار السلطة الرمزية له في المجال العام.

هذه إذن اللحظة الأولى. أما اللحظة الثانية، لحظة اشتغال "الشيوخ" بالعمل السياسي، فيما بعد الثورات العربية، فبمكنتنا أن نلحظ فيها الآتي:

كان "الشيخ" يحظى بدرجة ما من درجات الاحترام (أو التقديس أحيانًا)، في زمن ما قبل الثورة، نتيجة لسلطته الرمزية في الشأن الديني؛ إذ يملك إمكانات معرفية شرعية صنعت له

"رأسماله الرمزي" بتعبير "بورديو"، بين أتباعه وفي المجتمع عامة؛ إذ يُعلّم الناس دينهم، ويفتيهم، ويدعوهم إلى الله.

بينما في زمن ما بعد الثورة، وعندما قرر "الشيخ" وعلى حين غفلة من أمرنا أن يشتغل بالسياسة، ويتحول من: شيخ إلى شيخ-سياسي، فهو ومن حيث لا يدري تسبب في خسارته سلطته الرمزية في المجال العام، كيف؟

"الشيخ" عندما قرر "فتح" قارة السياسة، فإنه قد ألقى بنفسه في أرضٍ ليس له فيها أي رصيد، أو قل "رأسمال رمزي"، بمعنى أنه هنا لا فرق بينه وبين أتباعه ومريديه أو باقي أفراد المجتمع، في الخبرة السياسية على المستوى المعرفي أو المستوى الممارسي، ومن ثم فأفعاله السياسية، لا تتمتع بأية درجة من درجات الميزة أو الفرادة، بله التقديس أو العصمة!

ومن ثم فوجوده في ساحة السياسة، سواء في عين السلطة أو في عين المجتمع بعامة، هو وجود يشبه وجود من سواه، ليس له فيه أية ميزة أو خصوصية.

وعليه كان من اليسير أن يأتي "الشيخ" الجديد، شيخ ما بعد الثورة، الشيخ-السياسي، بأفعالٍ سياسية، يراها المجتمع أو أتباعه، أفعالًا خاطئة لا "تجوز" سياسيًا، ومن ثمة صار معرضًا للنقد بكل درجاته وأشكاله؛ فهو هنا لم يعد عالم وداعية نرجو بركته ونسأله الدعاء، وإنما صار رجل سياسة كغيره سواءً بسواء!

كما أن الشيخ لا يمثل هنا مرجعية سياسية؛ بمعنى أن الأفراد لا يتخذون مواقفهم السياسية بناءً على موقفه ورأيه الخاص، هذا الرأي الذي لا يُتناول (ولا ينبغي له)، كـ"فتوى"، علينا أن نلتزم بها. غاية ما هنالك أننا وبعد أن نتخذ موقفًا سياسيا ما، قد نبحث عن موقف لشيخ ما، نسوقه مساق القرائن، التي تسهم مزيدًا في توكيد وجاهة موقفنا الذي اتخذناه. أم أن نؤسس هذا الموقف ابتداءً على موقف الشيخ، فذاك زمان ولى قبل أن يجيء! (قد نستثني هنا الأتباع الـ"مصنمين" لمواقف شيخهم السياسية، ولكن كلامنا على حالة عامة(

بل ما طم الوادي على القرى، أن الخطأ من "الشيخ" هنا، ليس كالخطأ من غيره، ومن ثم فتسلسل ما يُرى خطئًا سياسيًا منه يعمل على تآكل سلطته الرمزية الأولى، أقصد السلطة الرمزية في الشأن الديني؛ إذ يصعب أن يتعاطى المرء مع شخصيتين في الشيخ: السياسية والدينية، ففقده سلطته في الأولى تدريجيًا تؤثر سلبًا على سلطته الثانية.

إذن، انخراط "الشيخ" في العمل السياسي، قد عمل على إفقاده سلطته الرمزية في المجال العام.

وهنا مكمن المفارقة بين اللحظتين: ففي لحظة الحداثة كان إقصاء رجل الدين عن السياسة، سببًا في إفقاده سلطته الرمزية في المجال العام. بينما في لحظة الثورات العربية، وعلى العكس، كان اشتغال "الشيخ" بالسياسة سببًا في إفقاده هذه السلطة!!

بقي سؤال.. هل يمكن وعند التحقيق، أن يؤدي هذا الاشتغال بالعمل السياسي، إلى تعميق علمنة المجال السياسي العربي مزيدًا، ولتتم حينها المفارقة؛ فيكون طرد رجال الدين من ساحة السياسة، في لحظة الحداثة، ترسيخًا لمسار العلمنة الأوروبي، بينما يكون إدماجهم فيها في لحظة الثورات العربية، ترسيخا لها في السياق العربي؟ ربما...

١٦-يمكننا القول ودونما خشية من أن نُتهم بالمبالغة، أن المفكر الروماني "إميل سيوران" (١٩٩٥) يمثل غاية النزعة العدمية والتشاؤمية في الفكر الأوروبي المعاصر؛

إذ تكفي نظرة عابرة على العناوين الجنائزية التي اختارها لنصوصه، لنتوقع قدر المأساة التي تثوي بداخلها، عناوين من قبيل: على ذرى اليأس، مصيبة أن يكون المرء قد ولد، والمياه كلها بلون الغرق!

إنها مأساوية تليق حقا بذاك الذي ولد لأب هو كاهن، ولأم ملحدة تماما!

والحق، أنه وبالرغم من مأساوية "سيوران"، إلا أنه ومن غير قصد منه بلا شك، يملك المقدرة أحيانا على إضحاكنا؛

شذرته هذه قد أضحكتني بشدة؛ عمقها، سهولتها، قسوتها:

"إن حبا يخيب هو محنة فلسفية تملك من الثراء، ما يتيح لها أن تجعل من حلاق نظيرا لسقراط!!"

١٧-أن تُمطر؛ يعني أن تُلقي السماء علينا السلام..

المطر؛ كف السماء يصافح كف الأرض ..

المطر؛ يلمع زجاج الذاكرة -"خاتمًا خاتمًا"-، يغسله من غبار النسيان..

يزيد من حسن قهوة الصباح، يعطيها مذاقًا يليق ببردنا ..

يريح السفر منا، يعطي الدروب فرصة لكي تغتسل من خطانا، يؤجل لقيانا بمن ننتظرهم أو ينتظروننا.

صباح بطعم الشتاء وبلون المطر..

١٨-هم يبحثون عما يدفعون به برد الشتاء، وأنا أبحث عما أدفع به حرارة الشوق إليكِ!

١٩-شعور بالبهجة يصعب تبريره، قد انتابني عندما قرأت رسالة "جان جاك روسو" إلى "فولتير"، والتي يقول له فيها :

"إنني لا أحبك يا سيدي، أعلن انسحابي من حلقة الفلاسفة، إنني أكره الاستماع إليهم وهم يحضون الناس على التخلي عن التقوى والورع!!"

٢٠-أي شيء أكثر أناقة من الإعتذار؟

-قبوله.

أي المناظر أجمل؟

-حمرة الخجل في وجه امرأة.

أين ينام القمر؟

-على كفيكِ!

أين ضاعت ذاكرة الوردة؟

-مع النحل!

متى يتكلم الصمت؟

-عندما تضيق بنا اللغة.

أي الدروب أكثر زحاما؟

-التي لا تفضي إلى مكان!

ما هي أكثر الأشياء شبها بنا؟

-أوهامنا!

ما هو أفضل وقت للتعارف؟

-لحظة الوداع!

ما المنفى؟

" -سوء تفاهم بين الحدود والوجود"! (درويش(

ما لون الحُب؟

-لون عينيكِ!

٢١-بغض النظر عن طبيعة رؤيتنا لفن التمثيل كقيمة، وكمكون هام في كل أفق ثقافي راهنًا. وأيضا، بغض النظر عن الفوارق الجمة بين واقع الفن السابع بكل حيثياته المهنية والتقنية

والإبداعية في الغرب، وبين واقعه عندنا نحن العرب، إلا أن النظر بلحاظ المقارنة بين المؤهلات الفكرية للمشتغلين بهذا الفن هنا وهناك، تنبئك بقدر المأساة:

خذ مثلًا، الممثلة اليهودية "ناتالي بورتمان" (٣٢ عاما)، الحائزة على "الأوسكار" و"البافتا" عن دورها في فيلم "البجعة السوداء" (٢٠١٠:(

"بورتمان"، حاصلة على شهادة عليا في الطب النفسي من جامعة "هارفارد". وهي أستاذ زائر في جامعة كولومبيا، حيث تحاضر في "سيكولوجيا الإرهاب."

كما عملت أيضا باحثة مساعدة في مركز دراسات قانونية مرموق، أثناء دراستها في "هارفرد."

كذلك "بورتمان" تتقن اللغات التالية: الإنجليزية، العربية، العبرية، الفرنسية، الألمانية، واليابانية!

ثم قارن هذا المثال البسيط بالمؤهلات الفكرية لـ"السبكي" وجوقة "الممثلين" المشتغلة معه!!

٢٢-بالرغم من كون "درويش" يؤكد على أنه "في حضرة الدم يخجل الحبر ويتراجع"، إلا أننا ويوميًا نثبت عكس زعمه تمامًا؛ فكلما فاض الدم كلما ازددنا ثرثرة. هل اللون الأحمر يفتح شهيتنا على الكلام؟ أم لعلنا نجد في الكلام تعويضًا/تعبيرًا عن عجزنا أمام بؤس هذا العالم؟ في هذا العالم، ثمة من يتقنون القتل ببرود، يصعب تفهمه من إنسان. وثمة من يتقنون الموت في صمت عالي الصوت، نسمعه ولا نسمعه! وثمة من يتقنون مشاهدة هذا الطقس اليومي، بقدر لافت من اللامبالاة، المفعمة بالمزيد من الكلام والكلام!

التفكير في هذا السياق تحديدًا مرهق، ومشرع على نوافذ مغلقة. ومن ثمة يجعلك تحترم "توليستوي" وهو يقول: "التفكير هو الذي يُشقي البشر أكثر مما يفعل أي شيء آخر!" ويدفعك للإنصات جيدًا لـ"شيلر"، وهو يخبر "غوته": "وحده التفكير ما لا أفكر فيه أبدًا!".

أو عل الأقل يقلل من حده تعجبك من ذاك المغرق في عدميته: "كافكا" حين قال: "أول علامات بداية الفهم: أن ترغب في الموت!"

حقا لولا أن "الإنسان يستطيع لحسن الحظ (أو لسوءه!) أن يتحمل قدرًا كبيرًا من الألم، دون أن يموت"، كما يشير "هيجو" ذات حكاية، لاستحال العيش على هذه الأرض. أو لعل الأمر ببساطة متعلق بموهبة التكيف لدى الإنسان، فهو بحسب "دوستيوفيسكي": "الكائن الذي يعتاد كل شيء!"

في كثير من الأحيان تدرك وجاهة نصيحة ذاك العجوز للشاب "كانديد"، في رواية "فولتير" الشهيرة التي تحمل نفس اسمه مع عنوان جانبي، مثقل بالسخرية كعادة "فولتير": "أو التفاؤل"! حتى يستطيع العيش هنا، إذ يقول له: "انصرف لزراعة حديقتك الخاصة، ثم اجتهد في نسيان هذا العالم!!"

٢٣-وفي قلبي شُرفة تطل على عينيكِ

٢٤-كوني حَذِرة وأنتِ تتسكعين على ضِفاف قلبي؛ فهو هَش كالزجاج من فرط الحنين!

٢٥-"من لا يتحكم في ثلثي وقته، فهو عبد مملوك!"
)نيتشه(

٢٦-"الموت ينزع الروح، أما الهجر فيتركها كأنها منتزعة، فهو احتضار بلا خاتمة!" (الرافعي(

٢٧-وكلما تأملت كم الوجع الذي يعشش في هذا العالم، تذكرت "هيجو" وهو يقول: "إن الإنسان قد خلق لحسن الحظ أو لسوئه على نحو يمكنه من أن يتألم طويلا وكثيرا من غير أن يموت!!"

٢٨-كنتُ أظن أن الربط سيء السمعة بين الانشغال بالعلم وتعسر الزواج، محصورا في أفق الثقافة العربية. حتى قرأتُ عبارة طريفة، كتبها ابن الناقدة الأمريكية الأشهر: "سوزان سونتاج" (صاحبة رواية "في أمريكا" وصاحبة "ضد التأويل" وهو عبارة عن مجموعة من المقالات النقدية المميزة جدا، والذي صدر في الستينات، ولا زال يُعاد طبعه للآن. وقد صدر حديثا (٢٠٠٨) في ترجمة أنيقة ل"نهلة بيضون" عن المنظمة العربية. وقد كان "المسيرى" يرى كتاب "سونتاج" هذا بمثابة: "مانيفستو مابعد الحداثة")، في المقدمة
التي أعدها لمذكرات والدته المنشورة بعد وفاتها، ينقل عنها: أنها كانت دوما تذكر زوج أمها الذي تربت في حجره بالخير، وتذكر كيف كان يتوسل إليها طوال الوقت، لكي تتوقف عن القراءة؛ حتى تتمكن من الزواج برجل مناسب!!

٢٩-"وتعلمت الحياة بما استطعت من الشقاء. وعلمتني كيف أنساها لأحياها..!" درويش

٣٠-وسأجمع لها عطرها حبة حبة، من على جبين وردة قد نهضت من نومها مبكرا،
واغتسلت بالندى..
وسأنسج لها من خيوط شمس الصباح الدافئة وشاحا يليق بها.
وحتى المساء سأجلس على قارعة النهار، أقبل العطر وأحكي للوشاح، وأردد مع درويش:
"وانتظرها.."

صباح الحنين، صباح نجمة هاربة من سماء بعيدة، صباح يليق بمن "تمسك القلب بين يديها.."

٣١-أتفهم تماما، أن يكون ثمة مسافة ما، بين الفكرة في مستوى النظر والمثال، وبين الفكرة في مستوى الممارسة، حينما يتمثلها أصحابها في أرض الواقع. فهذا أمر تشترك فيه كل الأيديولوجيات، وحتى الأديان. ولكن مع ذلك، يحق للمرء أن يصاب بنوبة اندهاش حادة، عندما يعلم أن المرجع الأساس لكل التقاليد الليبرالية، والتي تتخذ من مقولة الحرية منطلقا لها، أتحدث عن الفيلسوف الإنكليزي: "جون لوك"، قد كان تاجرا للرقيق!!

٣٢-"حين نكون في خاتمة الحياة يؤدي الموت معنى الفراق. وحين نكون في مستهل الحياة يؤدي الفراق معنى الموت"!

)هيجو(

٣٣-من المعلوم أن اسبينوزا كان على رأس الفلاسفة الذين تعرضوا لبالغ الاضطهاد والأذى من أقوامهم. وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، حتى اضطر لتغيير اسمه من باروخ لبنيديكت .

ومن المفارقات الطريفة: أنه قد أوصى قبل موته أن يُكتب على شاهد قبره العبارة الآتية: "هنا يرقد اسبينوزا فابصقوا عليه"! ويكأن لسان حاله يقول: لقد أذيتموني وأنا بينكم في هذه الحياة الدنيا، وها أنا ذا قد مت، ولكني أدلكم على مكاني بين الموتى؛ لتأذوني وأنا ميت كما أذيتموني وأنا حي. فتعالوا إلي من حين لآخر، فقط لتبصقوا علي وترحلوا!!..

٣٤-"وللحنين فصل مدلل هو الشتاء" يقول درويش. أهلا برعشة البرد الخفيفة، التي تذكرنا بدفء الغائبين. بحبات المطر الخجولة التي لا تأتينا إلا عبر النوافذ، لتزيح عن زجاج الذاكرة ما لصق به من غبار النسيان. بالليل الطويل الذي يتسع لكل شيء إلا لوحدتنا، يفسح لنا مساحة كافية لنتذكر/ لنتألم، فالذكرى هي أم الألم وأخت الحنين. ليل تتسكع فيه الأحلام على ناصية الانتظار، بعدما لم تجد حالما يليق ببهجتها. بتلك الياقات العالية التي نحتمي بها من لسعة برد، قد ضلت طريقها ذات مساء. أهلا بالشتاء..

٣٥-وأدركتُ أن الموتَ لا يوجعُ الموتى، بل يوجعُ الأحياء!..

٣٦-"إن اللغة تصنع العالم بقدر ما تعبر عنه" (بيير بورديو(

٣٧-"ما يبدؤه الحُب، لا ينهيه إلا الله"!!

)هيجو(

٣٨-الأديبة الكندية "أليس مونرو"، التي نالت جائزة نوبل مؤخرا، بوصفها أفضل من كتب القصة القصيرة في العصر الحديث. عندما مات زوجها قررت أن تتوقف عن الكتابة تماما. وحتى بعد نوالها نوبل، والذي سيزيد من شهرتها، ومن ثم لن تكف دور النشر المرموقة عن طرق بابها؛ لتظفر بنشر أعمال جديدة لها، أكدت أنها لن تعود للكتابة مرة ثانية. قد يكون ثمة أسباب أخرى قد ساهمت في اتخاذها هذا القرار؛ كمرضها أو كبر سنها، ولكن بقي السبب الأهم بحسبها هو فراق زوجها.

من الطبيعي أن نفقد من نحب، ولكن من العجيب أن نستطيع الحياة بنفس الهيئة التي كنا

عليها، بعدما نفقد من نحب؛ لأنهم عندما يرحلون يأخذون معهم جزءا من ذواتنا، ربما يكون هو الجزء الأهم!..

٣٩-ولما أرادت "امرأة عمران"، لوليدها أن يكون لله عبدا محضا، قالت: "محررا". فالحر هو من اختار أن يملكه الله بالكلية، يقول "طه عبد الرحمن". كل حرية ليست كحرية "مريم"، لا يُعوّل عليها.

٤٠-تعتبر مقولة: "الدين أفيون الشعوب"، واحدة من المقولات ذائعة الصيت. وهي تُنسب بما يشبه الإجماع والبداهة للفيلسوف والسوسيولوجي الأشهر:"كارل ماركس"، بحيث ارتبطت به وارتبط بها أوثق الارتباط. ولكن، في واقع الأمر، ليس "ماركس" هو من سك هذه المقولة، وإنما سكها عالم اللاهوت والفيلسوف الألماني، وأحد أهم أقطاب "اليسار الهيجلي": "برونو باور". ثم استعارها منه "ماركس"، فكان سببا لذيوعها واشتهارها، حتى صارت إليه تُنسب!!

٤١-**السبكي، المهرجانات، وثقافة الانحطاط، أو هل صرنا ما بعد حداثيين قبل الأوان؟
لا يخفى على ذي بصر، أن مهنة النقد السينمائي (والثقافي عامة) في مصر، تمر بمحنة تكاد تطيح بها من المجال الفني بمرة، محنة لا يلوح في الأفق ما يبشر على قرب الخلاص منها والانفكاك. ولا تعود جذور هذه المحنة فقط لضعف في إمكانات ومؤهلات المشتغلين بالنقد الفني؛ وإنما يتولى كِبر إثمها، طبيعة المادة الفنية، التي هي موضوع النقد أساسا؛ إذ أنها باتت تتسم بقدر لا سبيل لوصفه من السطحية والابتذال! اللذان جردا هذه المادة من أية مضامين، تجعلها أهلاً لممارسة فعل النقد عليها.
ولكن مع ذلك، لا تثريب علينا، إن نحن حاولنا الاقتراب من هذا الوضع، لنقدم رؤية نقدية

لظاهرة فنية ما تحظى راهنًا بقدر عالٍ من الرواج والاشتهار، أتحدث عن ظاهرة السبكي وأغاني المهرجانات:

عندما نقول "السبكي" فنحن نعني السبكي "المفهوم" وليس السبكي "الشخص"؛ أي أننا نتحدث عن نمط معين من أنماط الاستهلاك الفني، والذي لا ينحصر في إنتاج السبكي وحده، وإنما يتمدد مع الوقت، لدرجة كاد بها أن يحتل المجال الفني من أقصاه إلى أقصاه. فقط تمت استعارة اسم السبكي؛ لكونه من أوائل المؤسسين لهذا النمط الفني، وأشهر المنتجين له.

يتسم هذا النمط الفني على وجه العموم والاختصار، بقدر عالٍ من التسطيح؛ فالعمل الفني لم يعد يحمل أية مضامين: معرفية، سياسية، أو إبداعية، بحيث لا يجد المشاهد نفسه مضطرا للتركيز والتدبر فيما يُعرض أمامه، وكذا لم يعد يسأل نفسه، عن الأشياء التي تحصل عليها بعد فراغه من المشاهدة. فبالنسبة له الأمر أشبه بمشاهدة الأحداث التي تمر من أمام أعيننا بطريقة عابرة ومألوفة في الصباح وفي المساء.

وبغض النظر عن التقييم الفني المحض في كل مستوياته (نص، سيناريو، إخراج، تصوير، موسيقى،أداء..إلخ) لهذه الأعمال، إذ أن ذلك أمر قد فرغ منه وانكشف حاله وقضي الأمر. أقول، بغض النظر عن ذلك فإنك واجد لهذا النمط من الأعمال الفنية سمتا ثابتا لا يتبدل ولا يتحول، فثمة تركيبة معينة، أشبة ب"ثيمة" ما، تتكرر بكل رتابة من عمل لآخر، تركيبة مقصودة لذاتها؛ بمعنى أنها غير موظفة إطلاقا في إنتاج أية معاني: راقصه+مغني شعبي+تاجر مخدرات+بطل شاب شهم ومنحرف أخلاقيا في آن+ البطلة المغرية+ممثل كبير وممثلة كبيرة= مشاهد جنسية+مشاهد حركة+حوار مفعم ببعض الألفاظ ذات الإيحاءات البذيئة. هذه التركيبة هي التي أكسبت هذه الأعمال بعدها النمطي؛ أي لتصير نمطا بعينه من الاستهلاك الفني، والذي وسمناه بنمط "السبكي."

مع الوقت، لا يجد صانعوا هذا النمط جديدا يقدموه للمستهلك، وأمام هذا العجز لا يوجد ثمة سبيل للاستمرار، سوى تضخيم هذه المكونات كماً وكيفاً: فيزيد عدد الراقصات، وعدد المغنيين. ويتم جذب ممثلين مشهورين للمشاركة في العمل (كم). أو يزيد المحتوى الجنسي (المرئي/المسموع) قدر المستطاع (كيف(

والمتتبع لصيرورة هذه المنتجات، يمكنه تلمس عملية التضخم هذه بكل وضوح. ولنا في آخر أفلام السبكي (أحمد): "عش البلبل" آية جلية على هذا التضخم: ففيما يخص الراقصين، لدينا: دينا، بوسي، ومي سليم (راقصة هذه المرة وليست مغنية!). وفيما يخص المغنيني، لدينا: سعد الصغير وفريقه، والثلاثي: السادات/الزعيم/فيفتي (فرقة مهرجانات(

ويُرجح أن تزيد عملية التضخم هذه مع الوقت، ولكن حتما ستصل للحظة انسداد، ليس منها خلاص!

وعندما نقول "مهرجانات"، فنحن نعني نمطا من الأغنية، تبلور في أفق ما يُعرف بالأغنية الشعبية، ليمثل الجيل الأخير لها. بدأ في الظهور للعلن في نهايات العام ٢٠٠٩ (بعدما كان محصورا في وسط الأفراح الشعبية). ثم نال قدرا كبيرا من الشهرة بفضل إعلان شركة "موبينيل" في رمضان قبل المنصرم: "عشان لازم نكون مع بعض"، حيث مثل أول ظهور علني وكثيف لهذا النمط من الأغنية؛ لإحتواء الإعلان على مقطوعة ولو قصيرة منه: "لما عم الحاج يعدي "

ثم انفجر انفجارا في المجتمع عامة (بفضل سائقي الميكروباص والتوك توك والتاكسي ولو بدرجة أقل). ثم في الوسط الفني (بفضل استثمار نمط السبكي في هذه الأغنية؛ إذ وجد فيها خلاصا من حالة الانسداد التي يعاني منها فالجيل الذي كان يعتمد عليه في تركيبته: سعد الصغير، ومحمود الليثي بدأ يفقد بريقه، فبدأ يفسح مكانا بجواره لمغني المهرجانات أو حتى يستبدلهم به، كأفلام: حصل خير، عبده موتة، قلب الأسد، كلبي دليلي، عش البلبل،

والقشاش. أو حتى وصل الأمر لاستدعائهم كممثلين أبطال، كفيلم ٨% الذي يُعرض راهنا(!

وقد نهض هذا النمط على أيدي مجموعة من الشباب المنتمي للطبقة الوسطى الدنيا أو الطبقة الفقيرة، التي تقطن الأحياء الشعبية (المطرية، الأميرية، بولاق، وإمبابة....). ولعل أبرز الأسماء التي نقابلها في هذا السياق: فريق (أوكا/محمد – أورتيجا/أحمد – شحته كاريكا) وفريق (السادات- الزعيم- فيفتي (نسبة لفيفتي سنت)) ثم أسماء فيلو، فيجو، عمرو حاحا!، عمرو الجزار. ثم يظهر لنا في كل أسبوع تقريبا مغنيا أو فريقا جديدا يُقدم لنا بفضل نمط السبكي؛ فلدينا فريق: المدفعجية (صاحب المهرجان الأشهر: "أديك"!!، ثم فريق العصابة،...إلخ

يتسم هذا النمط من الأغنية هو الآخر بتركيبة معينة تتكرر على الدوام: (تكنو-ميوزك صاخبة، تفسح مكانا للصوت أو الكلمات بالكاد+كلمات دارجة مستقاة من عادي الكلام وثرثرته +رقص مستقى بدرجة أو بأخرى من رقصات "الهيب هوب" و"الراب" الخاصتين بالسود في أمريكا، حيث نفس السمت تقريبا: الملابس/ الحركات بما يشبه نسخة مشوهة من "سنوب دوج"، "جاي زي" و"فيفتي سنت"). ويغلب عليه الطابع الجماعي: فثمة فريق يؤدي الأغنية وليس مغني بمفرده.

كيف نقارب إذن هذه الظاهرة (السبكي/المهرجانات)؟

لمقاربة هذه الظاهرة يتحتم علينا الجواب عن سؤالين متعالقين: لماذا هي موجودة؟ ولماذا هي مشتهرة ذائعة الصيت؟ وكليهما يمكن الجواب عليهما بلحاظ سوسيو-ثقافي بسيط:

من المعلوم أن ثمة علاقة ديالاكتيكية/جدلية متينة، بين كل واقعٍ مجتمعي وبين المنتج الفني (والثقافي عامة) المحايث له، فلا الواقع ينتج الفن بمفرده (كما يجادل بذلك التحليل الماركسي للأدب)، ولا الفن ينتج الواقع بمفرده، وإنما كلاهما يسهم بأقدار مختلفة في صناعة الآخر. ربما يكون هذا ظاهرا في تأثر الفن بالواقع، ولكن العكس صحيح أيضا ولا سبيل لبسط ذلك

هنا (قررت وزارة الدفاع الأمريكية مؤخرا الإستعانة بعلماء معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (يحتل الترتيب الثالث دوما في قائمة أفضل الجامعات بعد كامبردج وهارفرد، ويدرس فيه اللسني الأشهر "نعوم تشوميسكي") لتصميم البزة العسكرية التي ظهرت في ثلاثية "روبرت د. جونيور": الرجل الحديدي، لإدخالها الخدمة العسكرية الفعلية(

وعليه فهذا النمط الفني: السبكي/المهرجانات، متساوق بدرجة كبيرة مع الأفق الثقافي الذي يعيش فيه منتجي هذا النمط الفني: السبكي، السينما بالنسبة له تجارة ومصدر رزق ولا أكثر(جزارة ولكن بطريقة أخرى). وشباب المهرجانات: صغار ضائعين لم يكملوا تعليم، يشاهدون أغاني أجنبية، مخدرات، أفراح. كل ما فعل هؤلاء (هم والسبكي)، أن أنتجوا أعمالًا تتفق تماما مع ذهنيتهم وثقافتهم المتواضعة. ومن يحملون هذه الذهنية للأسف كثر في مجتمعنا، ومن ثم وجدوا في هذا النمط معبرا صريحا عنهم وقريبا منهم. وعليهم تأسست شعبية هذا النمط.

اما لماذا ذاع واشتهر، فذلك ببساطة سببه فراغ المجال الفني من منتج حقيقي مبدَع وأصيل، يترجم عن الوضع الثقافي الراهن، إذ هو متدهور أصلا هو الآخر. ومن ثم وجد هذا النمط مساحة واسعة فارغة أمامة ليتمدد فيها كما يحلو له. وما طم الوادي على القرى، أنه لا يجد أية مقاومة من الفاعلين في الحقل الفني لهذا النمط، بوصفه وافدا جديدا، مقاومة تؤسس فيما يفترض لحالة من الصراع، كما تقتضي نظرية السوسيولوجي الفرنسي الأشهر: "بيير بورديو": "الفعل المجتمعي"، أقول، ليس فقط غابت المقاومة، وإنما ثمة تواطء مع هذا النمط، واستقبال حار لرموزه من قبل المجال الفني: فتجد ممثلين مشهورين يشاركون بكل بهجة هؤلاء في أفلامهم، وتتم استضافتهم في البرامج الحوارية، حيث يتم تلميعهم وتقديمهم بوصفهم نجوم ومواهب جدد. ناهيك عن توظيفهم في الإعلانات والدعاية الاستهلاكية. هذا الوضع أكسب/يُكسب هذا النمط قدرا عالي من المشروعية. ومن ثم مع الوقت سيترسخ هذا النمط أكثر وأكثر في الحقل الفني، ليؤسس لثقافة أقل ما توصف به أنها منحطة.

ولكن ما يستحق البهجة والدهشة حقيقة أنك واجد في هذا النمط بشائر وآيات على تحقق حالة "ما بعد الحداثة" في أفق ثقافتنا! كيف؟

-من المعلوم أن فلاسفة "فرانكفورت" (خاصة "أدورنو" و"بنيامين")قد انشغلا بنقد ما أسموه بالثقافة الشعبية؛ إذ وجدوا فيها انتهاكا لقيمة الفن الراقي وتشيئا له، ووسيلة من وسائل تنميط المجتمع والسيطرة عليه. وسعوا جهدهم أن تظل التمايزات قائمة وصارمة بين ما هو فني أصيل وراقي وبين ما هو شعبي.

ولكن جاء فلاسفة ما بعد الحداثة، ليصبوا جام غضبهم على هذا الفصل بين ما هو شعبي وبين ما هو فني راق، وسعوا جهدهم لتدميرها، لتصبح أي ممارسة بمثابة فن، ولعل الفرنسي "م. فوكو" قد اجتهد في تأسيس ذلك بكل ما أوتي من قوة، وسك في هذا السياق مصطلحه: "جماليات الحياة". بحيث أصبح زوال هذه الفواصل بمثابة معلم رئيس من معالم مجتمع ما بعد الحداثة (بسط ذلك "مايك فيزرستون" في أبحاثه. وكذلك بدرجة ما "فريدرك جيمسون" و"بيير بورديو .("

وأنت واجد في هذا النمط الفني محل بحثنا، تجلي واضح لزوال هذه التمايزات بين ما هو فني أصيل وبين ما هو شعبي، بل تمت عملية دمج كامل بينهما، بحيث صار التمييز بينهما أمرا صعب المنال!

-ثم أنت لو تدبرت ثانيا، في مضامين هذا النمط الفني، ستجدها خالية تماما من كل معنى، فكلام أغنية ما لا يفيد شيئا يُذكر، ونص وسرد فيلم ما لا يفيد شيئا يذكر هو الآخر. مما يعني أننا بصدد عملية تصفية تامة للمعنى، وما بعد الحداثة إن هي حقق أمرها، ليست إلا مشروعا للقضاء على المعنى! وعليه فهذا النمط يعتبر وبلا وعي منه جزءا من مشروع ما بعد الحداثة! (يمكن النمذجة عن غياب المعنى في السياق الفني غربيا، بحالة "لادي جاجا"؛ فما المعنى مثلا من أن ترتدي ثوبا مصنوع من اللحم النيئ!! وما المعنى في الرسومات، أو تسريحات الشعر...؟(

-ثم ثالثا، هذا المحتوى الضخم مما هو جنسي وبذيء، في هذا النمط يذكرنا ب"نيتشه" وإنسانه "الديونيسيوسي" (نسبه لديونيسيوس إله الخمر والشهوة في الأسطورة اليونانية)، المفعم بالرغبة و المقبل على ما يشتهيه بلا قيود، هدفه هو الالتذاذ قدر المستطاع. فهذا المحتوى لا أظن أن الغرض منه هو كسب الجمهور والأرباح وفقط، وإنما هو في جوهره تعبيرا عن ذهنية ما. فمن يذهب لمشاهدة فيلما للسبكي أو يستمع لمهرجان ما، ليس هدفه مجرد الظفر برؤية مشهد جنسي أو رؤية امراءة عارية! وإنما هو واجد فيهما معبرا عنه، معبرا عن انطلاقه واندفاعه، وذهنية الالتذاذ هذه يراها أستاذي الطيب بوعزة أنها ما يشرط ويحدد نشاط العقل الغربي في حالة ما بعد الحداثة (راجع مقدمة مشروعه في الكتاب الأول منه: في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة.(

وعليه وللمفارقة يبدو أن مجهودات المفكرين العرب التي سلخوا فيها أعمارهم، بغرض إدخال العرب في ركب الحداثة، قد جُعلت هباءا منثورا؛ إذ أن مجتمعاتنا كانت على الأرجح تسبقهم بخطوات نحو الأمام، فقررت أن تقفز على مرحلة الحداثة، وتلج عالم مابعد الحداثة رأسا، لنصير ما بعد حداثيين قبل الأوان!!..

٤٢-"إن المرء لا يكتفي أبدا بأن يكون الصواب إلى جانبه والحق معه، وأن تكون الحجة له لا عليه، بل إنك لتجده يتحرى دوما أن يكون محقا ضد شخص آخر يخالفه ويناقضه. وإنك قلما تجد المرء يسعى إلى أن يكون محقا تجاه القول الحق، بل إن مسعاه الدائم أن يكون محقا تجاه الغير. وعليه، فليس بممتنع أن تكون أعمق الحجج العقلية، إن هي حقق أمرها، أقوى دليل على ما تحويه رغباتنا في قول الحق من أحقاد دفينة وضغائن خفية"!!
نص عظيم من: "غاستون باشلار"

٤٣-واشنطن والرياض: هل هو خصام أزواج؟

انخرط مؤخرا رأسا السلطة في المملكة السعودية، ومن يُرجع إليهما أمر القرار السياسي كله: "تركي الفيصل" و"بندر بن سلطان"، في سباق محموم نحو هجاء الولايات المتحدة، وتوبيخ سياسات السيد "أوباما"، تزامنا مع العرض السياسي الجريء الذي قدمته المملكة على رؤوس الأشهاد؛ برفضها وضع اسمها أمام مقعدِ عاطلٍ في ما يُسمى ب"مجلس الأمن" لعامين قادمين.

تأتي المفارقة من كون الحلف الأمريكي-السعودي، قد صار منذ أمدِ ليس بالقصير مضربا للمتانة والصلابة؛ فالتفاهم بين الرياض وواشنطن يعد بمثابة ثابت سياسي لا يتغير ولا يزول. فما الذي عكر صفو هذه العلاقة الحميمة؟

يكمن السر في كلمة واحدة: إيران، ذلك الذئب الفارسي الرابض على الضفة المقابلة من الخليج، كيف؟

العقل السياسي السعودي لا يرى في هذا الإقليم عدوا له إلا إيران، تلك التي تسعى لبسط هيمنتها على ذراه، منتزعة زعامة العالم الإسلامي من السعودية "خادمة الحرمين". ومن ثم فالمحدد الذي يشرط مجمل السياسات السعودية، هو: كيف تحجم دور إيران في المنطقة وتضعفه؟

وفي هذا السبيل اتكأت الرياض على واشنطن، تلك التي تعتبر طهران آخر حصون محور الشر، وحامل لواء الدولة المارقة؛ فعلى واشنطن أن توفر الحماية للرياض عسكريا وسياسيا، وتساعدها في تقليم أظافر الملالي في طهران، وكبح جماحهم.

ثمة ثلاثة ملفات اتخذت منها الرياض آية على أن واشنطن قد تغدر بها يوما ما:

الأول وهو أقلها شأنا، يتمثل في موقف واشنطن من ثورة البحرين، إذ لا ترى فيها الرياض سوى نتيجة لتدخل طهران في شئون دولة البحرين، عن طريق تثوير المكون الشيعي فيها على آل خليفة أصهار آل سعود في الدم والمذهب. بينما واشنطن الملزمة ولو حتى في العلن بدعم أية حراك حقوقي ديمقراطي، لم تستطع أن تتبنى نفس خطاب الرياض. ومن ثم رأت الأخيرة

أن واشنطن تصمت إن لم تكن تساعد بخطابها هذا طهران على التمدد أكثر وأكثر في دولة خليجية ضعيفة، هي للمفارقة مقر الأسطول البحري للجيش الأمريكي.

أما الثاني وهو الأهم، فيتمثل في موقف واشنطن المخزي تماما من الثورة السورية، خاصة بعدما افتضح هذا الموقف بحنث السيد أوباما بعهده أن يصب جام العقاب على الأسد الصغير حال سولت له نفسه خنق شعبه بالسلاح الكيماوي. فالرياض التي لم تكل عن دعم ثوار سوريا سياسيا وعسكريا بإشراف مباشر من بندر (رئيس المخابرات والرجل القوي القادم لتوه من واشنطن بعد حوالي ربع قرن عمل خلالها سفيرا له نفوذ واسع ثمة)، عولت كثيرا على تدخل عسكري ما من واشنطن لحسم الأمور، قد تيقنت أن ظنها قد خاب .

فالرياض ترى في سقوط الأسد وإقامة حكم سني علماني خلفا له مكسبا جيو-استراتيجي يستحق العناء، فبهذه الضربة سوف تضرر مكانة طهران في الإقليم بلا حدود، وسيتم العصف باستراتيجيتها الطموحة تماما. وها هي واشنطن تخذلها هي الأخرى بلا حدود!

أما ثالثا، وهو ما طم الوادي على القرى، بشائر الانفراجة التي لا تخطئها العين في مسألة الملف النووي الإيراني، بعد وصول روحاني لسدة الحكم، وأحاديث خامئني اللينة تجاه واشنطن، التي لم تعد بعد الشيطان الأكبر !

الرياض تخاف أن تتصالح واشنطن مع عدوتها اللدود: طهران، وتصل لتسوية ما معها حول الملف النووي، تكون في إطار صفقة كاملة، تتيح للأخيرة أن تتملك السلاح النووي كسيناريو كارثي، أو على الأقل تتيح لها التمدد في الإقليم بأريحية تحت عين واشنطن.

يزيد من هذه الهواجس إلحاح واشنطن على ضرورة حضور طهران في المناقشات الدائرة حول "جنيف٢"، مما قد يوحي بأن طهران سيكون لها مكانا ما في سوريا مابعد الأسد، إن جاءت سوريا ما بعد الأسد يوما ما !

هذا إذن ما أغضب الرياض من واشنطن، ودفعها إلى الجهر بخصامها لها للعلن، لعل الأخيرة

ترعوي، وتراعي ما بينهما من خالص الود السياسي، فتقسو مزيدا على الأسد، وتحتشم مزيدا في فتح أحضانها لروحاني!

الشيء المؤسف في واقع الأمر، أن واشنطن وعلى وجه العموم قد سأمت من الشرق الأوسط، وقررت توجيه استراتيجيتها نحو منطقة الباسيفك، حيث "بكين" العدو القادم لا محالة، ومن ثم ليس من المرجح أن تخضع لابتزاز الرياض، وتغير من سياستها مع دمشق وطهران. وما يزيد الأسف أنه في القريب العاجل لن تعود واشنطن بحاجة لنفط السعودية، بعد كمية الوقود الصخري المكتشف مؤخرا، والذي من المرجح أن يُغنيها عن ثروة الخليج النفطية.

لا شيء سيثني واشنطن عن رغبتها في البقاء بعيدا عن حرب تحاول الرياض (والدوحة) أن تجرها إليها في سوريا. ولا شيء سيمنعها من عقد أي صفقة مع طهران لإزالة هم سلاحها النووي من على كاهلها، ولكنها في نفس الآن لن تفسخ ببرود علاقتها الحميمة مع الرياض، ولكن كيف ستصالحها تلك الغاضبة؟ لا أعلم.

٤٤-كان فيلسوف الوجودية الأول: "س. كيركيجارد" امتنع عن دخول امتحانات الدراسات العليا في اللاهوت، منقطعا عن الناس لعقد من الزمن تقريبا. وقد برر فعله ذلك آنها بالقول: "إن ما أحتاج إليه هو أن أعرف نفسي، أن أعرف ما يريد مني الله، أن أعلمه وأن أصل لحقيقته، أن أجد الفكرة التي أكرس لها محياي ومماتي!!".

٤٥- قد يُنظر أحيانا للرواية نظرة سلبية من حيث مقدرتها على تغيير الواقع أو على الأقل التأثير فيه؛ ربما يرجع ذلك في جزء منه إلى اعتبار الرواية جنسا أدبيا ينهض على الخيال كبنية أساسية، مفارقة تماما للواقع، ومن ثم لا تنشغل بسؤال تغييره.

أو يرجع ذلك في جزء ثانٍ منه، إلى ضديد هذه النظرة؛ إذ يرى التحليل الماركسي العمل الفني عامة، انعكاسا مباشرا للواقع المادي (وإن كانت هذه النظرة الماركسية أصبحت أقل حدة مع ج. لوكاتش)، ومن ثم فالرواية هي محض ثمرة للواقع، وليس بمكنتها ولا بمكنة أي عمل فني أن يغير أو يؤثر في هذا الواقع.

تينك النظرتان أنتجتا ذلك الاعتبار السلبي لعلاقة الرواية بالواقع. في حين أننا لو أجلنا النظر في تاريخ الرواية سنظفر بنماذج عدة لروايات ساهمت بقدر أو بآخر في تغيير الواقع:

ولعلنا نجد في رواية الأمريكية: "هيريت ب. ستو": "كوخ العم توم" التي تعرضت فيها لمسألة العبودية في أمريكا، ونالت الرواية شهرة طاغية، وكان لها كبير الأثر في الواقع، ولقد قامت الحرب الأهلية التي قضت على الرق بعد نشر الرواية ببضع سنين فقط. حتى أن "إ. لنكولن" عندما قابل "ستو" داعبها قائلا: "إذن هذه هي السيدة الصغيرة التي أشعلت هذه الحرب الكبيرة!!"

ومما يجمل ذكره في هذا السياق، أن آيه الله ع. خامنئي، وهو أكثر من رجل دين تخرج من معاهد قم في واقع الأمر؛ فهو منفتح على آفاق ثقافية تتجاوز أفق الفكر الشيعي المدرسي. ولعل ذلك سمة عامة في ساسة إيران الكبار بدرجة أو بأخرى؛ فمثلا "ح. روحاني" والذي يتحدث خمس لغات حية، تجده في خطبه السياسية يتوسل بفلسفة الفرنسي: "م. فوكو"، لإيصال فكرته لمستمعيه!

على أية حال، فخامنئي هذا المتعمق في فكر "ع. شريعتي"، و"س. قطب" (قد ترجم بنفسه بعض كتبه للفارسية)، كان يأمر كبار موظفي حكومته بقراءة رواية "كوخ العم توم"؛ حتى ينمي فيهم صورة أبشع لأمريكا..

٤٦ -يمكننا أن نعتبر الأديب الإنكليزي المرموق"تشارلز ديكنز"، حالة نماذجية تبرهن على وجاهة أنظار أصحاب المناهج السوسيولوجية والسيكولوجية في النقد الأدبي؛

فهؤلاء يفتشون عن دلالة النص الأدبي خارج النص؛ أي في مختلف الظروف المجتمعية والنفسية التي حايثت كتابة الأديب لنص ما؛ لأنهم يرون أن هذه الظروف هي التي تساهم بالقدر الأكبر في إنتاج النص، ومن ثم إذا أردنا فهمه فهما مستقيما وتأويله تأويلا مستساغا، يلزمنا أن نحيط علما بهذه الظروف.

ونحن إذا دققنا النظر في أعمال "ديكنز"، سنجد أن صاحب أوليفر تويست وأوقات عصيبة، قد فعلت الشروط المجتمعية والنفسية فعلها، في الطبيعة الفنية لمنتجه الأدبي؛ فحياة البؤس التي زاولها الرجل قد انطبعت بصورة جلية في أعماله، وأعطت لها نمطا معينا، جعل من "ديكنز" أديبا فريدا، حتى قيل: " لولا جناية أبيه عليه (بدخوله السجن في ديونه وتركه له يتجرع مر الحياة)، ما وصل لقمة الأدب." وهنا يضيف مواطنه المسرحي الأشهر"جورج بيرنارد شو" من باب الإعجاب: "ولولا جناية شكسبير عليه (بكونه خُلق)، لتربع عليها وحده!"

ولكن مع تأسيس اللسني الأشهر"فيرديناند دو سوسير" للسانيات البنيوية، ومن ثم غزو المنهج البنيوي جل حقول العلوم الإنسانية، ومنها النقد الأدبي بالطبع، سيخفت نجم المناهج السوسيولوجية والسيكولوجية هذه في مقابل صحوة بنيوية مع الشكلانيين الروس ثم مع حلقة براغ أو مع مدرسة كوبنهاجن، لتسيطر البنيوية على هذا الحقل مع "بارت" والبقية بقبضة قوية، حاشا من مشاغب شقي سيسخر كل إمكاناته فيما بعد لهدم قلعة البنيوية، أتحدث عن"دريدا" وتفكيكيته.

ما يعنينا هنا أن النقد البنيوي لم يعد كسلفه يبحث عن الدلالة في فناء النص، وإنما يراها موجودة وحصرا داخل النص، في بنيته اللغوية تحديدا، هنا لم يعد للأديب ولا لظروف حياته أية أهمية في إنتاج الدلالة، ومن ثم لا ينبغي أن ننشغل بهما في تأويانا وفهمنا للنص، وليحسم "بارت" أمرهما بإعلانه موت المؤلف وبلا ذرة أسف عليه، ولو حضر بذكر اسمه على نص ما فهو حضور صوري؛ فالمؤلف هنا نعم ولكنه جثة في كفن، ليس له من الأمر شيئ!

ومن المعلوم أننا كلما شغلنا أكبر قدر مستطاع من المناهج في النص كلما استطعنا تأويله بصورة أكمل؛ وآية ذلك أنني سقت هذا الكلام الآنف بسبب نص لافت ل"ديكنز" يعلق فيه على عمله المثير للجدل: قصة مدينتين، يقول فيه :

"لقد استحوذت الفكرة علي تماما، بدلا من أن استحوذ أنا عليها. وراحت هي تسيرني، بحيث لم أعد قادرا على السيطرة على أي من شخصياتها. ولقد كتبتها وأنا أعاني عن شخصياتها معاناة هي الأشد فى حياتي!"

فانظر، ذاك الذي يضرب به المثل على فاعلية المؤلف، وأثر الظروف المختلفة في إنتاج النص، يعترف بأن قصة مدينتين هي ما كتبت نفسها عبره. شخوصها هم من سطروا مسارهم عبر قلمه، هو فقط مجرد وسيط!

إنه اعتراف يثلج صدر البنيويين، ويتيح لهم الزهو بلا حدود..

ويتيح لنا أن نردد بجرأة مع "هايدجر": "إن اللغة هي التي تتكلمنا!!"

٤٧-بالرغم من كون الفلسفات العِلموية؛ كالتجريبية مع "هيوم"، "لوك"، و"بيكون" أو الوضعية مع "كومت"، أو الوضعية المنطقية مع فلاسفة "حلقة فينا" مثلا، شاءت أم أبت هي فلسفة في نهاية المطاف، إلا أنها سعت وبلا كلل، نحو هدف معين: وضع حاجزا صارما بينها وبين باقي الفلسفات، التي لا ترى فيها سوى انخراط آثم في لغو ميتافيزيقي، لا يسمن ولا يغني من جوع. بينما هي تتقصد تحقيق سمة العلمية في اشتغالها الفكري؛ بحيث يصير هذا الاشتغال علما وليس فلسفة.

ومن ثمة نجدها تتحدث عن الفلسفة بوصفها شيئا مغايرا لها، لا تمت له بصلة. وعن الفلاسفة بوصفهم آخرين، ليس بينها وبينهم أية علاقة من قريب أو بعيد!

وفي هذا السياق، أنت واجد بعض المقولات التي لا تخلو من طرافة، ينتقد فيها هؤلاء العلموين الفلسفة والفلاسفة:

-ف"بيكون" عندما أراد الحديث عن فلسفة "أفلاطون"، قال عنها :

"هي حديث عجائز عاطلين إلى شباب غارق في الجهل!"

-وهذا "كارناب"، أراد الحط من قدر الفلاسفة ذات مرة فقال عنهم :

"الفلاسفة؛ شعراء ضلوا الطريق!"

-وذاك ثالث، عبر عن بؤس الفلسفة فقال عنها :

"الفلسفة؛ هي محاولات فاشلة للوصول بطرق ملتوية إلى أشياء نحن أصلا في غنى عنها!"

-وعن بؤس الفيلسوف يضيف رابع :

"الفيلسوف؛ كرجل معصوب العينين، يبحث عن قبعة سوداء في غرفة مظلمة!!".

٤٨-وأجمله، أن تحِب وأنت لا تدري لماذا تحِب؟ أو تحَب وأنت لا تدري لماذا تحَب؟ الجهل يكسب الحب قدرا أنيقا من الغموض، يعطيه المذاق الذي يليق بعمقه. كل حبٍ يقبل التفسير لا يُعولّ عليه!

٤٩-"السياسة؛ هي فن منع الناس من التدخل فيما يخصهم!!"

)بول فاليري): مفكر وشاعر فرنسي، وبرنس تماما!

٥٠-ولما تيقنت جميلتي أني أعشق الكتب، أقامت محاكم التفتيش، وجعلت من كل كتابة عن غيرها هرطقة!!

٥١- *كريس. نولان، وف. نيتشه: تحطيم الأصنام

ينبغي الإعتراف بادئ الأمر أن المسافة واسعة حد اللانهاية بين ذينك الإسمين: كريس. نولان، وف. نيتشه؛ فالأول نجم في سماء الفن السابع، والثاني نجم في سماء الفن الفلسفي؛ ما

شأن مخرج سينمائي من الطراز الرفيع (نول.) بمجنون الفلاسفة وفيلسوف المجانين (نيتشه)؟ وكيف جاز لي أن أضع اسميهما على خط واحد، وبين مدلول كل اسم والآخر تلك الهوة السحيقة؟

سأحول هنا أن أمسك بخيط يمتد من "نيتشه"(مات في ١٩٠٠) إلى "نول." ذاك الرجل الأربعيني السِن:

-من المعروف عن نيتشه أن ثمة مقولتين رئسيتين في فلسفته(ان جاز لها أن تُسمى فلسفة، "بيرتناند راسل" يغضب حد الجنون ممن يَسم نيتشه بالفيلسوف!) الأولى تتمثل في توليه كِبر مهمة الإعلان عن"موت الإله"(للمقولة دلالة فلسفية تتجاوز معناها الحرفي)، ثم هو من أخذ على عاتقه مهمة تطيهر ما بقى على الأرض من ظلاله. وبذلك يكون مهد الطريق لما يسميه ب"الإنسان الأعلى" ليرث الإله. أما الثانية فتتعلق بحفره الجينالوجي في أصل الأخلاق، لينتهي إلى نسف أي قيمة مطلقة ينبغي التخلّق بها.

-وليس من التلبّس بخطيئة المبالغة بشيء إذا أدرجنا اسم الرجل على رأس قائمة المفكرين الأكثر تأثيراً في الفكر الغربي الحديث/المعاصر، فضلاً عن امتداد تأثيره إلى خارج سياج الفكر الغربي؛ فكتابه "هكذا تكلم زرادشت" هو بحسب بعض الباحثين الكتاب الفلسفي على مر التاريخ الأكثر انتشاراً ! ، وكذلك من المشهور أن المرحوم "عبد الرحمن بدوي" قد كتب كتاباً عن "نيتشه" شرح فيه فلسفته، وكان "جمال عبد الناصر" ممن تأثروا أشد التأثر بهذا الكتاب!(ربما يفسر هذا جزء من طغيانه وديكتاتوريته(

-وعليه فإن فكر نيتشه ثاوي في أفكار كل من أتى بعده من فلاسفة (خاصة الوجوديون: هايدجر و سارتر. والمابعدحداثيين: بودريارد، ليوتار، ورورتي). ومن ثم فأفكار نيتشه واحدة من محددات العقل الجمعي الغربي المعاصر.

-وقد تمظهر هذا الحضور النيتشوى في الفضاء الثقافي الغربي في واحد من أهم مجالاته: الفن؛ حيث بزغ في النصف الأول من القرن العشرين ما عُرف ب: ال (comics) أو

القصص المصورة . وكان جُلّ هذا الفن يتمحور حول شخصية الرجل الخارق (super hero)ذاك الكائن الخارق القادر على قهر كل عدو، الذي يمكنه الطيران في الهواء، و غيرها من ما لا يسطيعه الإنسان (العادي/الأدنى) من قدرات ومواهب، إذ هي فقط للإنسان نيتشه الأعلى!

-وقد قام على هذا الفن أكبر المؤسسات الإعلامية الترفيهية في العالم : الأولى هي "والت ديزني" من خلال شركتها "مارفل". والثانية هي "وورنر برازرز" من خلال شركتها " د. س. كومكس" حيث قدما عدد لا حصر له من الأبطال الخارقون/ الإنسان الأعلى ، جُلها فد تحول لأفلام سينمائية. ولعل أهمها: انتجت "مارفل" الشخصيات الآتية fantastic : four , x-men, captain America, spider man ,hulk and thor

وأنتجت "د.س. كومكس" الشخصيتين الأشهر والأقدم super man and bat : man.

-ما يعنيني هنا هو الحديث عن الشخصية الأخيرة : الرجل الوطواط bat man والتي سأربط بها بين "نيتشه" و "كريس نول." حيث حظيت هذه الشخصية التي أبدعها "بوب كان" في ثلاثينيات القرن العشرين برعاية سينمائية وافرة فقد أُنتج عنها ثمانية أفلام تمتد من العام ١٩٨٩ حتى ٢٠١٢

-أول خمسة أفلام عن الشخصية، والتي تمتاز بقدر مريع من السطحية(بغض النظر عن سوء درجة جودتها الفنية)، جاءت ممثِلة لإنسان نيتشه بوضوح؛ فالرجل الوطواط طوال الأحداث يطير في الهواء، ويمارس ألعابه الإعجازية!

-أما الثلاثة الأخيرة،فهي محل بحثي إذ هي من صناعة "كريس نولان" وهي (batman : begin ,2005)، dark night ,2009)، و

dark night rises ,2012)فإن الأمر فيها مختلف؛ ف"نولان" بوعي أو بغير وعي منه قد هدّم إنسان نيتشه الأعلى المتمظهر هذه المرة في الرجل الوطواط كالآتي:

-قام "نولان" بتجريد الشخصية من أسطوريتها، نزع عنها "الغلالة السحرية/المدهشة" على حد تعبير "ماكس فيبر" ، فالرجل الوطواط هنا ليس ذلك البطل الخارق، فطوال الأحداث(عبر الثلاثة أفلام مجتمعه، فهو يربط بينهما بشدة،بحيث يمكن اعتبارهم عمل واحد) هو من يُضرب و يُعذب ويُسجن ويُبصق في وجه ويُهان ! يُخدع ويُغرر به. حتى في نهاية الأحداث لا ينسب نولان النصر الذي تحقق له وحده دائما يأتيه العون من الآخر، باختصار لن ترى في الشخصية أية معاني من معاني البطولة الخارقة، وإنما هو إنسان عادي، بل إنسان أدنى!

-حاول نولان "عقلنة" الشخصية في كل تفاصيلها، فبالرغم من كونه ملتزم بالنسق الأصلي للقصة المصورة (بوب كان) إلا أنه سعى بكل ما يملك لتقديم الأسباب المنطقية التى صنعت كل تفاصيل الشخصية من خلال الترابط الشديد بين الأجزاء الثلاثة التي حققها، فعقلن ملبسه، وآلياته، وعقلن قدراته(المحتشمة في حالة نولان مقارنة بالخمس السابقة) بحيث يمكنك تصور أن أي أحد يمكنه بسهولة أن يكون الرجل الوطواط.

-وإذا كان "نيتشه" قد هدم القيم والأخلاق فقد قام "نولان" باقامتها مرة ثانية وللمفارقة على يد شخوصه، على يد إنسانه الأعلى! إذا أن المحتوى القيمي والأخلاقي المتضمن في الثلاثية عال جداً، ليعيد نولان القيمة لأخلاق الضعف التي سلبها منها نيتشه(اللين والرفق والصبر ،...) ويهدم أخلاق القوة التي أقام "نيتشه" لها كل اعتبار (البطش، الغرور، (...

-يحشو "نولان" العمل بالفكر والأحداث التي لا تجعل من شخصية الرجل الوطواط محور الأحداث، وإنما هو جزء من العمل لا أكثر، إمعاناً في تحجيم قدره ونزع البطولة عنه.

-يختم "نولان" حياة البصل الخارق، بعدما سلب منه هذا الوسم، بالحياة التي يتمناها الإنسان الأدنى وليس إنسان "نيتشه"، رجل يشرب القهوة مع زوجته في مقهى أنيق على ضفاف البندقية!

-في العام ٢٠١٣ سيتم عرض فيلم "لنولان" ولكن هذه المرة سيتناول الشخصية الأشهر والتي أخذت الإسم الذي وضعه "نيتشه" لإنسانه / super man :الإنسان الأعلى،

ليُكمل رحلته في إنزال إنسان نيتشه من عليائه، ينزع عنه الأسطرة، ويسلب عنه الصفات الخارقة.

" -كريس. نول." ذاك الإنجليزي الموهوب، الذي يحقق أعماله بمفرده، فهو من يكتب النص والسيناريو (بمساعدة أخيه الأصغر)، وينتج العمل كذلك(بمساعدة زوجته)، ثم يخرجه أيضا. بغض النظر عن إبداعاته الفنية الأخرى، المتضمنة لكثير من الأفكار العميقة. والرائعة على مستوى التقييم الفني المحض، فإن ثلاثيته عن الرجل الوطواط، ومعها عمله القادم عن الsuper man، لها بعد فلسفي عميق؛ إذ قام فيها بتحطيم أصنام نيتشه المتمثلة في شخصيات الإنسان الأعلى التي تتكاثر يوم وراء يوم في الفضاء الهوليوودي، حيث يمكن بسهولة تلمس الفرق بين أعماله الأربعة هذه و باقي الأعمال التي قدمت الشخصيات الخارقة الأخرى؛ وقد قامت شركة "مارفل" العام المنصرم بتحقيق فيلم يجمع كل أبطالها الخارقين(avengers)، يمكننا من خلاله القبض على إنسان نيتشه بكل بساطة.

-فإذا كان "نيتشه" حاول تحطيم أصنام الحقيقةوالأخلاق، وأظنه فشل، فإن "نول." قد حاول تحطيم أصنام نيتشه، وأظنه نجح. ذاك هو الخيط الذي وجدته ممتد من الأول إلى الثاني!

٥٢-*محمد عباس :Mohamed Abbas مفارقة صديق

نعم سأقتطع حيزاً من وقتي، ومساحة من هذه الصفحة لكي أكتب عنه وعنا: عنه: محمد عباس (بيسو)، وعنا: نحن الذين أُبتُلينا بصداقته!

-أن يكون لك صديق يُحسن معاملتك؛ لا يبخل عليك برؤياه وسماع صوته، فيحمل قلبك له كل وُدّ، هذا وضع طبيعي. للأسف "بيسو" ليس هذا الشخص!

-أن يكون لك صديق، يُسيء معاملتك؛ يقاطعك ويهجرك، فتقاطعه وتهجره، ويضيق مكانه في قلبك، هذا وضع طبيعي. للأسف "بيسو" ليس هذا الشخص!

-ولكن أن يجمع شخص بين الوضعين، فهذا غير طبيعي بالمرة، ولكن كيف يكون هذا الجمع؟ الجواب: أن يُسيء صديق لك ؛ فيبخل عنك برؤياه ويهجرك، ولكن وهنا تكمن المفارقة: يظل محتفظاً بمكانه في قلبك لا يضيق! "بيسو" هو هذا الشخص بالتحديد!

ولمن يقرأون هذا الكلام، وهم في معافاة من وجع صداقة رجلنا: إليكم شذرة من حاله معنا: نحن المبتلون بصداقته:

-عندما يُطلب منك أن تسرد أسماء الأصدقاء الأكثر قرباً لقلبك، فيكون اسم "بيسو" في رأس القائمة، ولكن لا يلبث أن يُصاب سائلكَ بالدهشة عندما يكون جوابك عن سؤاله التالي، والمتعلق بمتى كان آخر مرة سمعت صوته، أو رأيته؟ هو: إنها مساحة من الزمن تُقاس على مقياس بالأعوام، نعم الأعوام، لا الشهور والأيام!!

-فقط أنت لا تذكر آخر مرة قابلته أو تحدثت معه، وإن تذكرتَ فبالتأكيد ستُردف بجوابك تأكيداً يفيد أن هذه المرة كانت صدفة، مناسبة ما، موقف عارض،...

-ولكن في المقابل تتذكر وبلا شك عدد المرات التي اتصلت به ولم يأتيك صوته الدافئ جواباً على الإتصال!، تتذكر عدد الرسائل التي علقت عليها أمل ما، في أنها قد تنجز ما عجز عنه الاتصال: أن يكتب لك!

-في تلك المرة (الصدفة) ، ليس ثمة (فرصة)لكي تبدأ بمواجهته بوابل من كلمات السخط والعتاب؛ فقط يضحك لك ويغرقك بكلمات الشوق والأسف، ويطلب منك ذاك الاعتذار الذي لن تقبله منه أبداً، فتنسى ما كان!

-في غفلة من أمرك تجد اسم صديقك، يصرخ به هاتفك، ذاك الإسم الذي لم تتجاسر على حذفه حتى الآن! فتحدق فيه مندهشاً، قبل أن تجيبه، هنا تظن أن الرجل قد تعافى وقرر أن يعود لك، ويتأكد ظنك عندما يطلب منك أن يراك!! تصدق نفسك، ويأتيك بالفعل (يصلي معك ركعتين في البيت)، ولكن.... يختفي، ليعود من حيث أتى، ليغيب، وليطول الغياب، وتتصل ولا يُجيب، وتأتي هذه المرة، هذه الصدفة، أو ذاك الاتصال، وتلك الرؤية في

جوف الليل، وهكذا في دورة متعاقبة لا تنقطع (بالنسبة لي أنا في هذه الدائرة مذ ٧ سنوات !!)

إذا نحن أمام مشكلة/ مفارقة مركبة من سؤالين :

الأول: لماذا يفعل "بيسو" ذلك؟

الثاني: لماذا لا نغضب من "بيسو" بسبب ما يفعل؟

-تتضاعف الحيرة عندما تتعامل مع كل سؤال على حدة، وتحاول أن تبحث عن جواب له، بعيداً عن السؤال الثاني؛ إذ أن أعتى عقول أصحابه، حتى هو نفسه لا يستطيع أن يقدم جواب مقنع عن أي من السؤالين!

-ما أجادل به هو : لفهم حالة "بيسو" لا بد من التعامل مع السؤالين ككتله واحدة، وبطريقة منطقية صورية، كالآتي:

المقدمة الأولى: "بيسو" يعاملك بطريقة فيها إساءة لك

المقدمة الثانية: أنت لا تغضب من هذه الطريقة، ولا يحمل قلبك عليه

من المقدمتين، نصل لنتيجة مفاداها: أنك في حقيقة الأمر (وحتى لو لم تعي ذلك أو تصرح به) لا تُحمّل "بيسو" مسؤلية ما يفعل، وكأنك تعلم: أنه مضطر ومجبر على ما يفعل؛ فثمة عائق يحول بينه وبين التواصل معك .

هذا مقتضى منطق "أرسطو"، ولكن عندما تتدبر في مأساتك، لا تجد أية أعذار للرجل؛ فليس ثمة ظروف أو عوائق تبرر له ما يفعل!

إذا ما التفسير؟

-سأحمل منطق "أرسطو" على مقتضى آخر وهو: "بيسو" لا يتعمد بالفعل أن يقاطعنا، ولا يتقصد أن يأذينا، أي أنه لا يشعر حقيقة وبعمق بخطورة سلوكه معنا (وإن صرح لك في تلك المرة الصدفة أنه متأ لم لطريقته معك أو نادم: فاعلم أن ذلك هراء(!!

-كل من يحبك فهو محتاج إليك، ولكن "بيسو" لا يحبنا للدرجة التي تجعله يحتاج لنا

" -بيسو" مكتفي بحياته (زوجته، ومريم، وملك، وذكرى "الأم")، ليس لدينا شيء يحتاجه، لا مادياً، ولا معنوياً، وبالتالي لا عقله ولا قلبه منشغل بنا، ومن ثم لا يشعر بحرج عندما لا يرد عليك!

-أهم ما يربط "بيسو" بنا هو "إلتزامه" هذه هي الدائرة التي تشملنا في حياته، فقط عندما يكون ما يتعلق بهذه الدائرة سيأتي هذا الإتصال، أما ما خلاف ذلك: فدرب نفسك على مهارة الانتظار لمسافات زمنية طويلة؛ لأنه لن يأتي!

" -بيسو" لن يتغير، ومن ثم لا حاجة للومه وتأنيبه، وتذكيره بحقوق الصداقة عليه؛ لأن مشكلته معنا بنيوية تتعلق بشخصه، بنمط حياته، وبموقعنا في أجندة اهتماماته الضيقة،وليست بسب موقف عارض.

"-بيسو" سيظل "بيسو" ف(من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر!! (

٥٣- -في سياق بحثه لإشكال علاقة الدين بالسياسة، يجادل البروفيسور "طه عبد الرحمن" الإسلاميين أو "الديانيين" (بحسب جهازه الاصطلاحي الخاص)، في مقولة: "الدولة الإسلامية دولة مدنية"؛ حيث يرى عبد الرحمن أن هذه المقولة تحمل مفارقة منطقية، يلزم منها شبهة"شنيعة" على حد وصفه وهي: كيف نَسِم الدولة بأنها إسلامية، ثم ننزع عنها سمة الدينية؟ فالدين عام والإسلام خاص، والوصف بالخاص يقتضي الوصف بالعام، ومن ثم وصفنا للدولة بالإسلام(الخاص)، يلزم منه وصفنا إياها بالدين (العام)، حيث أن الدين أعم من الإسلام . وهنا تكمن مفارقة هذه المقولة؛ إذ وصفت الدولة بالخاص (الإسلام)، ونفت عنها العام (الدين!(

-ولكن ما هو اللازم "الشنيع" لهذه المفارقة؟

يرى صاحب "روح الدين" أن قولنا "الدولة الإسلامية دولة مدنية" يلزم منه أن نقول أن "الإسلام دين إلهي ومدني في ذات الوقت!" فالإسلام لا يكون إلا إلهي،والمدنية في العقل

"الطاهئ" لا تعني سوى: ما كان من وضع البشر لا من وضع الإله، وذلك طبقا للسياق السوسيو-تاريخي الذي تبلور فيه مصطلح "مدنية"، وهنا قد
أثبتنا الوصفين في آن للدولة: الإسلام/ الإلهي، والمدني/ الوضعي، وهذا تناقض لا تنقصه الصراحة! ويلزم منه منطقياً أن نقول: الإسلام دين مدني، أي من وضع البشر، وتكون هذه المقولة حينه تساوي: "الدولة الإسلامية دولة دين مدني" وهذا بالتحديد ما استدعى وصف "شنيع" من طه عبد الرحمن!

-في المقابل يرى طه عبد الرحمن أن المقولة الأكثر انضباطاً ومنطقية في هذا السياق هي: "الدولة الإسلامية دولة دينية" ولا يعدل هو عنها؛ ولا يتهيب من شبهة "الثيوقراطية" التي يراها ما دفع الإسلامين/ الديانيين، إلى الهروب من وصف الدولة الإسلامية بالدينية، في حين يرى صاحب "روح الحداثة" أن وصف الدينية لا يمت بِصلة لمفهوم "الثيوقراطية" الذي يفرون منه!

-لماذا يتهيب الإسلاميون من الجهر بدينية الدولة الإسلامية؟ هل لأنهم مقتنعون (معرفياً) أنها فعلاً دولة مدنية؟ أم فقط يجارون رغبات السياق السياسي العام الذي "يتحسس" من وصف "دينية"؟

٥٤- *الإسلاميون والسقوط في أفخاخ السياسة، أو أين هو "المشروع الإسلامي"؟

-يتخذ فلاسفة "مابعد الحداثة"، خاصة فلاسفة فرنسا منهم، وعلى رأسهم "ج. ف. ليوتار"، موقفاً متشدداً من المصطلحات، حيث تشكل بحسبهم سلطة معرفية غير مستحقة على العقول، يلزم أن ننهض ونسعى للتحرر من سطوتها. ويجد هذا الموقف جذوره في فلسفة "بهلوان الأبد"! كما كان يروق له أن ينعت نفسه، أتحدث عن الفيلسوف الألماني الأشهر: "ف. نيتشه"؛ حيث كان يشنع على المصطلحات واسما إياها ب"الفلسفة الرمادية"، التي يجب التخلص منها.

-وبعيدا عن مشاغبي فرنسا، ومجنون ألمانيا، ثمة مظاهر لممارسة هذا السلطة المصطلحية، داخل المجال السياسي الإسلاموي في مصر راهناً؛ حيث تتلقى مسامعنا كل يوم هذه التهمة المتبادلة بين ممارسي السياسة، أو بين/من المنتمين لهذه الكيانات التي تمارس السياسه: موقف حزب "النور" هذا يخالف "المشروع الإسلامي". وسياسة "الإخوان" هذه لا يمكن أن يكون الهدف منها هو تحقيق "المشروع الإسلامي ."

إذن يُستخدم مصطلح "المشروع الإسلامي" كسلطة معيارية يتم اعتماداً عليها تسويغ وممارسة فعل النقد المتبادل داخل المجال السياسي.

-والسؤال الذي يتمتع بقدر عالٍ من وجاهة ومشروعية الاستشكال في هذا السياق هو: ما هو مدلول هذا المصطلح: "المشروع الإسلامي" الذي على أساسه تتم عملية النقد المتبادل هذه؟ وهذا الاستشكال العام عبارة عن شَرَك، بمجرد أن نسقط فيه حتى نجد أنفسنا أمام حزمة أكثر تعقيداً من التساؤلات الفرعية، كالآتي: من أين جاء هذا المصطلح، الذي تحول إلى ما يشبه "مقولة" متجاوزة؟ هل من بدايات ما يسمى ب"الصحوة الإسلامية" أو قل "اليقظة الإسلامية" بلغة البروفيسور"طه عبد الرحمن"؟ هل خضع هذا المصطلح للتطوير، أم أنه ظل ناجزاً وراسخاً؟ بعبارة أخرى، هل ثمة "مشروع إسلامي" واحد، أم أننا بصدد "مشاريع إسلامية"؟ بتفصيل أكثر، هل المشروع الإسلامي "الإخواني" هو نفسه المشروع الإسلامي "السلفي"، أم ثمة خلاف بينهما؟ وإن كان ثمة خلاف، فما مداه؟ هل يصل إلى حد التناقض مثلاً؟

-فيما قبل الثورة، أيام "المحنة"، كانت مقولة "المشروع الإسلامي" لا تُثير الكثير من الاشكالات داخل المجال الإسلاموي؛ ذلك لأنها كانت تحدد بالسلب؛ فكان "المشروع الإسلامي" ببساطة هو: ما يضاد النظم العلمانية الحاكمة، ومن ثم كان "المشروع الإسلامي" عبارة عن ذاك "الحُلم" المؤجل إلى الحين الذي ستزول فيه الأنظمة، والتي لم يكن تلوح في

الأفق أية قرائن تبشر بقرب ذاك الزوال، ومن ثم كان "المشروع الإسلامي" عبارة عن "دعوة" نسألها الله!

-فجأة وبدون مقدمات أستجيبت الدعوات، وتحقق الأمل؛ فزالت الأنظمة، ووجد الإسلاميون أنفسهَم في قلب أتون السياسة، وجود أشبه بالتورط. ليس ثمة متسع من الوقت كيما نرجع للأصول النظرية لنفتش عن بنية "المشروع الإسلامي"، و تفاصيلة وآليات تنفيذه. وإنما ثمة واقع غاية في التعقيد، كفيل بإرباك كل المنغمسين فيه!

-ولكن مهلا، فعلى الجانب الآخر هناك المنتمين للكيانات الإسلامية من غير المنخرطين رسمياً في العملية السياسية، ومن ثم مخففين من عبء ممارسة الحكم، هؤلاء لا يشعرون بذاك الإرتباك، فقط ما يهجسهم مذ وصول الإسلاميين للحكم، هو لماذا إلى الآن لا نرى أية ملامح تبشر بقرب ولادة "المشروع الإسلامي"؟، بل ثمة ما يزيد الطين بلة؛ أنهم يرون قرنائهم في الحكم، يتخذون مواقف تكاد تكون مضادة لذاك "المشروع الإسلامي"، أو في أحسن الأحوال تضره (وينمذجون على ذلك بقضية التشيع، وقضية الضباط الملتحين، والقرض الدولي، و..إلخ). وهنا يقدم "الكوكب الأزرق" فرصة رائعة للتعبير عن هذا الاندهاش من كل موقف يرونه لا ينسجم مع مقولة "المشروع الإسلامي."

-على أية حال فإن دال "مشروع project="يعنى ضمن ما يعني، أن ثمة منظومة من الأهداف المصاغة بوضوح، ومعها الخطط والوسائل التي ستُوظف في انجاز هذه الأهداف، مصاغة بوضوح هي الأخرى، مع وجود إطار زماني محدد بدرجة أو بأخرى سيتم من خلاله تنفيذ هذا المشروع.

-والاستشكال الذي نلقاه أمامنا الآن: هل ثمة تصور ناجز في العقل السياسي للإسلاميين عن "المشروع الإسلامي" كما تدل عليه كلمة مشروع؟

لعل ذلك متحقق على مستوى من النظر عالٍ التجريد؛ إذ ثمة أجوبة جاهزة عن الاستشكال السابق، لا تقل عمومية عن مصطلح "المشروع الإسلامي"، فالمشروع هو: "تطبيق الشريعة"،

"أسلمة المجتمع"، "إقامة النظام الإسلامي"، و "السعي نحو الخلافة ."

ولكن هل ثمة آليات واضحة لتنزيل هذه العموميات على أرض الواقع، آليات محايثة للشرط السوسيو-تاريخي الراهن، وليست متجاوزة له، بما يمكنها من تغيير هذا الواقع فعلا؟

- لم ينشغل الإسلاميون في ما قبل الثورة، بتحقيق بناء نظري متين، يؤطر مشروعهم الإصلاحي. وفيما بعد الثورة سقطوا في أفخاخ السياسة، التي تحركهم وتؤثر فيهم أكثر مما يؤثروا فيها؛ فبدلا عن أسلمة السياسة العلمانية، ثمة خوف من علمنة السياسة الإسلامية!

-وعليه فثمة سؤال لحوح لا مناص لنا من مواجهته: أين هو "المشروع الإسلامي"؟

٥٥- *لما ذاق موسى طعم السماع: "وكلمه ربه"، حدثته نفسه بلذة النظر، فتجرأ على: "أرني أنظر إليك!"

٥٦-"يتميز الإسلام بالشجاعة والافتخار، في أنه لا يلجأ إلى العاجز في نشر دعوته، بل بأساليب تستثير اعجاب الغير . وفي أنه مستند إلى زهد متسم بالجرأة والبسالة. وتعزى هذه الظاهرة إلى مؤسس هذا الدين ودعوته إلى الإيمان بالله الواحد، الذي يعلو على ما سواه من الكون. وأن روح الإسلام لا تتجسد في انقياد أعمى مجرد من الإرادة وحرية الاختيار، بل بموالاة كاملة، وصادقة لله المنزه عن الصفات البشرية، والذي فوق ذلك يتسم بطراز سامٍ ورفيع من اللطف والطيبة".

)إ. كانط!! (

٥٧-*والمجاز هو كذِبْ اللغة. وحدها اللغة يزيد حُسنها كلما زاد كذبها!!

٥٨-"حسب المرء أن يُحِب وأن يُحَب. فلا يطلبن أحد شيئاً أكثر؛ إذ ليس ثمة جوهرة أخرى يمكن أن يُعثر عليها في ثنايا الحياة المظلمة".

) -ف. هيجـــو(

٥٩- *وأجمل ما تكون الشمس، عندما تأوي لفراشها الأحمر، الذي نسميه الغروب. وحدها الشمس يزداد حسنها كلما اقترب موعد نومها!

٦٠- *كلما مررتُ بمحطة وقود، تذكرتُ جملة حوارية ل"كريس. نولان"، في مشهد من أهم مشاهد تحفته"the dark knight" ، قالها "هيث ليدحر" (الجوكر)، ل"كريستيان بيل" (باتمان)، في سياق بدا ويكأن "الجوكر" يعطي فيه درساً ل"باتمان"، إذ يقول له: "الناس طيبون فقط بقدر ما تسمح لهم الحياة؛ انتظر حتى تسوء الظروف، وسترى كيف سيقوم هؤلاء المتحضرون بأكل بعضهم البعض!!"

٦١-"كلمة ديمقراطية أُستعملت إلى درجة فقدت فيها كل دلالة؛ بل إنها الكلمة وبلا ريب الأكثر إذلالاً في كل اللغات!! "

) -ج. بيرنانوس(

٦٢-" *يصنع الناس تاريخهم، ولكنهم لا يصنعونه على النحو الذي يروق لهم، أو في ظل ظروفٍ يختارونها بأنفسهم، بل عوضًا عن ذلك فإنهم يصنعونه في ظل الظروف التي يواجهونها، وهي ظروف معطاة وموروثة عن الماضي. إن تقاليد الأجيال الماضية تجثم كالكابوس على عقول الأحياء".

) -ماركس(

٦٣- **وعندما تتأمل في المستوى الذي وصلت إليه أخلاقيات جنود الانقلاب من إعلاميين ومثقفين، تدرك مدى عبقرية "نيتشه" وهو يجادل "داروين" قائلا: "والقرود أكثر طيبة من أن يتحدّر الإنسان منها!!"

٦٤-يتجرعون طعم الرصاص لنتذوق نحن طعم الحرية!

٦٥-وأتعجب ممن ينفقون أوقاتهم، في محاولة تبصير الناس، بأن الإعلام يستخف بهم، ويحشو عقولهم بأكاذيب وترهات؛ ففي واقع الأمر المشكلة ليست في الإعلام بل فيهم؛ هم يرون فقط ما يريدون رؤيته، ويسمعون فقط ما يريدون سماعه، ف"كل يرى ما في خاصة قلبه". كل هؤلاء لهم موقف مسبق ممن يُذبحوا اليوم، لديهم تقبل شبه فطري لعمليات الإهانة التي يتعرض له الإخوان وكل من اقترب منهم ولو من بعيد، ومن ثم لديهم كل الدوافع لكي يصدقوا ما يُتلى عليهم من هراء، مهما بلغت درجة اللاعقلانية فيه، طالما يتوافق مع هذا الموقف المسبق. وفي المقابل لديهم حصانة مخيفة ضد تصديق أية حقائق تُتلى عليهم، مهما كانت واقعية وعقلانية، طالما تقدح في هذا الموقف المسبق. وعليه ولو أقسمت لهم ألف يمين ويمين بأن ما يقوله الإعلام محض افتراء، لن يصدقوك بكل بساطة، ولسان حالهم يردد مع "جاليليو": "ومع كل ذلك فالأرض تدور"! إنه "بؤس الأيديولوجيا" ولعنة "الوعي الزائف". فحافظ على عقلك يا عزيزي واتبع "باولو كويليو" في طريقته: "لا تضيعوا وقتكم بالشرح؛ فالناس لا يسمعوا إلا ما يريدون سماعه"، وردد مع "نيتشه": "لا يرغب الناس في سماع الحقيقة، لأنهم لا يريدون أن تتحطم أوهامهم."

٦٦-"قد تمر عقـود لا يحدث فيها شيء، ثم تأتي أسابيع تحدث فيها عقـود "
)الرفيق: لينن(

٦٧-الكـون منفى، وعينـاكِ الـوطن

٦٨-"أتود أن تعرف لمَ أقتل أصدقائك بالسكين وليس بالرصاص؟ القتل بالرصاص يؤدي غرضه بسرعة؛ لا يمنحك الفرصة لتتذوق كل الإنفعالات الصغيرة. في لحظاتهم الأخيرة يكشف لك الناس عن معدنهم الحقيقي".

أتذكر هذه الجملة الحوارية للعبقري "كريس. نولان" من تحفته "فارس الظلام"، والتي قالها "الجوكر" لأحد رجال الأمن، كلما رأيت البسمة التي تعلو وجوه قيادات الإخوان في لحظة اعتقالهم، أو كلما تدبرت في إقدام من استشهدوا في "رابعة" على الموت. فبغض النظر عن سادية "الجوكر" التي يتضمنها هذا النص. وبغض النظر عن محاولته التدليل على أن رجال الأمن ليسوا بالضرورة شرفاء (هذا المعنى قد اجتهد "نولان" في بيانه بصورة واضحة في الثلاثية كلها)، إلا أنه ما يعنيني هذه الجملة الأخيرة: "في لحظاتهم الأخيرة يكشف لك الناس عن معدنهم الحقيقي": فثبات النساء قبل الرجال في "رابعة" أمام الرصاص، ينبئك بوضوح عن طهارة نفوس أولئك. وبسمة شيوخ الإخوان وهم يساقون إلى التنكيل أو الموت، تنبئك بوضوح عن نبل معدنهم.

٦٩"الموت هو نكهة الوجود؛ وحده يسبغ مذاقا على اللحظات، وحده يقاوم تفاهتها. نحن مدينون له بكل شيء تقريبا. هذا الاعتراف بالدين، والذي نزداد انكارا له، هو أفضل تعزية لنا في الحياة الدنيا".
)إ. سيوران(

٧٠-"إن التحول إلى الديمقراطية، سيفضي إلى نمط من البشر جاهز للعبودية، بكل ما يحويه المعنى من تلطف. إنه مشروع لإنتاج الطغاة، بالمعنى الأكثر روحانية"!! ـ (نيتشه(

٧١-ثلاثية "بورن"، أو في رحلة البحث عن الإنسان

عندما حقق المخرج الإنجليزي "بول جرينجراس" عمليه: "تفوق بورن ٢٠٠٤"، و"تحذير بورن ٢٠٠٧"، مكمّلا الثلاثية التي ابتدأها "دووج ليمان" مخرِجًا ومُنتجًا في ٢٠٠٢ بعمله "هوية بورن"، كانا في واقع الأمر قد اعتمدا على ثلاثية الروائي الأمريكي "روبرت لودلم" ذائعة الصيت، والتي تحمل نفس الأسماء: "هوية بورن" ١٩٨٠، و"تفوق بورن" ١٩٨٦، و"تحذير بورن" ١٩٩٠. وقد حققت الأعمال الثلاثة كما الروايات الثلاث نجاحًا لافتًا.

وبالرغم من كون هذه الثلاثية السينمائيةُ تصنف عادة في خانة أفلام التشويق، إلا أنها تحتوي على قدرًا لا بأس به من المضامين السياسية؛ فهي تنتمي إلى طائفة من الأعمال التي انشغل محققوها بالتفتيش عن الأدوار السياسية التي تنخرط فيها وكالة الاستخبارات المركزية، ضمن الأعمال التي تنشغل عامة بنقد طبيعة صنع القرار في السياسات الأمريكية (يمكن النمذجة هنا بتحفة "بول ت. شيورنج" التلفزيونية ذات الأربعة مواسم: "الهروب من السجن"(٢٠٠٥-٢٠٠٩)، ذاك العمل الذي يكشف عن الحدود التي يمكن أن يصل إليها تأثير النخبة الثرية والتي تتحكم في مجالات: السلاح والطاقة والإعلام، على صناعة القرار السياسي. كما يمكن النمذجة أيضا بعمل خفيف أدى فيه "مارك ويلبرج" دورًا لافتًا، أتحدث عن فيلم: "القناص"، ذاك العمل الذي يكشف عن المدى الذي يمكن أن يصل إليه لوبي الطاقة في الولايات المتحدة من الإجرام في القارة السمراء، سعيا خلف البترول(.

وفي الواقع، إن "بول جرينجراس" يُبدي ميولا واضحة ناحية الأعمال التي تنتقد السياسات الأمريكية؛ فقد حقق في ٢٠١١ عمله: "المنطقة الخضراء"، لينتقد فيه غزو الولايات المتحدة

للعراق. كما أن "دووج ليمان" وعلى سبيل المفارقة هو إبنا ل"شارلز ليمان"، وهو أحد القضاة الذين حققوا في القضية التي عُرفت سياسيًا ب" فضيحة إيران-كونترا أو إيران-جيت"، وهي صفقة سرية انخرطت فيها إدارة رونالد ريجان ونائبه بوش الأب، مع إيران أثناء الحرب العراقية-الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٩)، قضت ببيع الولايات المتحدة لعدوها: إيران أسلحة مقابل إفراج إيران عن رهائن أمريكيين محتجزين في لبنان، ثم تُنفق الأموال التي جنتها الولايات المتحدة من الصفقة في تمويل مجموعات "كونترا" التي كانت تحارب النظام الشيوعي في "نيكاراجوا" وقتئذٍ.(لمزيد من التفاصيل عنها راجع كتاب "الحلف الغادر" ل"تريتا بارسي" وهو في الأصل أطروحته للدكتوراه، والتي أشرف عليها البروفيسور "فرانسيس فوكوياما(."

على أية حال فإن ثلاثية "بورن" قد انصرفت للتعمق في أعمال وكالة الاستخبارات المركزية، الموسومة عادة بالأعمال "القذرة"؛ حيث تضع الوكالة برامج سرية تخفيها عن الإدارة الحاكمة، وعن الكونجرس عامة، بغرض تنفيذ عمليات إغتيالات سياسية في بلدان مختلفة، لرموز سياسية تعارض مصالح واستراتجيات الولايات المتحدة في هذه البلدان. ويخض الأفراد المختارون لهذه المهمة، لبرامج تدريب وتأهيل جذرية، فنية ونفسية وفسيولوجية؛ إذ يتم تحويل الفرد فيها من إنسان إلى آلة قتل، بعد محو كل تاريخه،ليُتحكم فيها بكل سلاسة، فقط يُؤمر أن يقتل فيقتل.

وتدور أحداث الثلاثية حول عميل مميز قد انخرط في هذا البرنامج ابتداءا ثم تمرد عليه، وراح يحارب الوكالة، والتي تطارده بدورها بكل ما تملك من قوة عبر ثلاث سنوات، كيما تقضي عليه. وقد اتخذ من اسم هذا العميل: "جيسون بورن" اسما للثلاثية كلها: "بورن"، وأدى دوره بكل عبقرية الممثل: "مات ديمون" (والذي دخل مؤخرًا ورشة "كريس. نولان" للشغل بين يديه كبطل لعمله القادم "انترستيلر" ٢٠١٤.(

من الناحية الفنية، الأعمال الثلاثة ممتازة في واقع الأمر؛ فالأعمال متكاملة بشكل قوي، لأن الرويات الثلاثة المقتبسة منها متكاملة هي الأخرى، وتثبيت فريق العمل (مخرج وممثلين)،

أعطى للثلاثية طابعًا نسقيا، ويكأنها ثلاث حلقات من مسلسل. ساعد على ذلك قيام "جون بويل" بتألف موسيقى الثلاثية كلها، مما جعل للأعمال الثلاثة "ثيمات ثابته".

التكامل هذا من وجه نظري يعتبر العامل الأهم في تحقيق جودة العمل..

أما على صعيدٍ آخر، وهو ما يعنيني في واقع الأمر، فإن العمل يكشف عن المدى الذي يمكن أن تصل له الدولة الحديثة "اليفياثان" في سعيها لـ"تشييء" الإنسان، وتدجينه للدرجة الذي يصبح فيها بمثابة آلة تتحكم فيه بكل سلاسة من خلال لوحة مفاتيح !

ثم يكشف أيضا عن بعدٍ آخر من أبعاد كفاح الإنسان ضد عملية "التشيء" هذه، متمثلا في سعي "ج. بورن" لاسترداد إنسانيته على مدار الثلاثية، بالتفتيش عن تاريخه الممحي، داخل ساحة قتال معلنة بينه وبين الوكالة/الدولة، لعله يظفر بذاته يوما ما.

ما استدعى لذهني الآن هذه الثلاثية واضطرني للكتابة عنها، هو في الحقيقة مشهد وحيد في الجزء الأول من الثلاثية: "هوية بورن" أراه محور الثلاثية الذي تقوم عليه، والذي يمثل لحظة تمرد "ج. بورن" على النظام، على التشيء، على الدولة، على محاولة محو إنسانيته. إنه مشهد المهمة الأولى التي أنيطت به: قتل سياسي إفريقي يجهر بمعارضة سياسات الولايات المتحدة، والتي فشل فيها، وعلة فشله هذه هي بيت القصيد بالنسبة لي: لم يقتل "بورن" هدفه لا لشيء إلا لشفقته عليه، عندما رأه يقبّل طفليه الصغيرين ويضحك لهما ويضحكان له.

"بورن" الذي انفقت فيه ملايين الدولة كي يتحول لآله بلا قلب، لا تعرف العطف ولا تعرف الشفقة، ولا العاطفة عموما إليها سبيلا، قد تلمس إنسانيته حينها، وامتنع عن قتل الرجل رأفة بصغاره، لتبدأ من هذه النقطة رحلته لاسترداد كينونته كإنسان يشعر لا كآلة تقتل.

ما ذكرني في واقع الأمر بكل هذا: هو شيء واحد: صورة "أسماء البلتاجي" التي لا تفراق عقلي، مثيرة في نفسي سؤال وجودي: كيف قتلها من قتلها؟ كيف لم تسعفه إنسانيته

لتصده عن هذا الجرم؟ بالرغم من تأكدي أن دولتنا لم تنفق عليه شيئا مما أنفقته الاستخبارات المركزية على "ج. بورن" لتمحو إنسانيته!!

هامش :

بعد موت "روبرت لودلم" أكمل الكاتب الأمريكي: "إيرك فان لوستبيرد" ثلاثية "بورن" حيث كتب سباعيته في الفترة من (٢٠٠٤-٢٠١٣): تركة بورن، خيانة بورن، عقاب بورن، خداع بورن، هدف بورن، هيمنة بورن، وحتمية بورن.

تم تحقيق الجزء الأول: "تركة بورن" في ٢٠١٢ وهو سيء جدا مقارنة بثلاثية "لودلم" و"جرينجراس". والحقيقة لا يمكنني أن اتهم "لوستبيرد"؛ إذ لم أقرأ الرواية، لكن في ظني أن العمل فشل نظرا لفقده الشرط الذي جعلته آنفا سببا لجودة الثلاثية: التكامل؛ حيث كان استبدال "مات ديمون" ب"جيرمي رنر" خطيئة؛ لأن شخصية "بورن" ارتبطت تماما ب"ديمون". ولم يشفع استدعاء "إدوارد نورتون" للعمل عن غياب "ديمون"، ولم يضف شيئا في واقع الأمر. كما أن استبدال "جون بويل" بـ"جيمس نيوتن هاورد" أثر سلبا على موسيقي العمل؛ لا لسوء "هاورد" وإنما، لأن ذلك قد كسر ثيمات "بويل" التي ساهمت في تشكيل نسقية الثلاثية.

٧٢-من المفارقات الطريفة، أن في مجتمعنا الذي تُعد الطبقية واحدة من أهم سماته، تجد ثمة نظرة ذات طابع دوني، للفِلاحة وللفلاح، لدرجة أن وصف "الفلاح" صار يُستخدم في سياق القدح والذم؛ تحديدا عند الرغبة في التعبير عن افتقاد شخص ما لمستوى عالٍ من الثقافة؛ أي أن لفظ "فلاح" يكاد يُستخدم كضديد للفظ "مثقف". ومكمن المفارقة هنا: أن الجذر اليوناني الذي يمثل أصل كلمة ثقافة (كالتشر) سواء في اللغة الانكليزية أو الفرنسية أو حتى الجرمانية هو : "كولر" والذي يعني في اللسان اليوناني: فلح الأرض وتعهدها بالرعاية،

ومن ثم توجد علاقة شديدة الأواصر بين الفلاحة والثقافة؛ فتثقيف/فلح العقل يشبه تماما فلح/تثقيف الأرض؛ فعقل بلا ثقافة، كحقل لم تتم رعايته وفلحه فلم يثمر. وعليه لا نستغرب قول "شيشرون": "إن الفلسفة هي فلاحة الروح". وأيضا نجد الفيلسوفة الألمانية "حنة أرندت" تؤكد: "إنما ظهر مفهوم الثقافة في وسط شعب فلاح بالأولى". فتخيل، أننا نستخدم لفظ "فلاح" والذي هو أصل وفصل كلمة ثقافة للدلالة على خلو ذات ما من الثقافة!!

٧٣-في سبيل تفلتِه من قبضة الاعتراف بالخطأ والشعور بالذنب، يلجأ الوعي البشري إلى انتاج وتضخيم أداه شعورية معينة، هي: "المظلومية"؛ فالإحساس بالظلم يعمل كجدار عازل بين المرء وبين إمكانية تحميل ذاته المسئولية ومن ثم لومها. ففي الغالب آخر ما يقوم به الشخص عندما يقع خطبُ ما، يكون هو مسئولا عن وقوعه بدرجة أو بأخرى، هو إلقاء تبعات ما جرى على عاتق ذاته، وإنما دوما يظل يبحث عن "آخر" يُحمّله المسئولية؛ هذا الآخر قد يكون شخصا أو كيانا مجتمعيا أو حتى ظرفا معينا، يتم تقديمه كفداء للذات على مذبح اللوم.

هذا الوعي بالمظلومية يتم انتاجه في مستوى الشخص الواحد، وأيضا في مستوى جماعة بشرية بعينها، بوصفها فاعلا مجتمعيا.

وتنامي هذا الشعور بالمظلومية، يُنتج لنا شخصا (أو جماعة) محصنا بطريق ذاتية ضد أي نقد؛ بمعنى أنه ومهما تعرض لنقدِ موضوعيا، لا يجره هذا النقد إلى مراجعة نفسه وإخضاعها للتقويم، كيف؟ لأن هذا الشخص لديه شعورا واعيا (ولا واعيا) بأن كل نقدِ يتعرض له هو بمثابة حلقة جديدة من حلقات الظلم التي يتعرض لها، ومن ثم لا ينصت لهذا النقد. ولا يرى في مواقفه التي استدعت نقده، خطئا (ولو حتى محتملا)، يستلزم المراجعة والتقويم.

يمثل الشيخ "ياسر برهامي" و"حزب النور" أنموذجا على فاعلية الشعور بالمظلومية في إفقاد النقد أية قدرة على دفع الشخص (أو الجماعة) لمراجعة ذاته، ومن ثم يمكن تقديم هذه المقاربة السيكلوجية (إلى جانب ما قدمناه آنفا من مقاربات سياسية واجتماعية) لتفهيم سياسات الشيخ وحزبه:

ثمة تنامي مفرط للشعور بالمظلومية عند الشيخ ياسر، والذي انتقل منه للدعوة السلفية/ حزب النور. قد تشكل ونضج هذا الشعور مع الزمن؛ إذ ثمة تصور عميق بأن الشيخ "ياسر" شخص مضطهد من قبل كل الكيانات الدعوية (خاصة الإخوان) دوما يتعرض من قِبلهم للطعن والتجريح بمختلف أشكاله، وأيضا ينسحب هذا التصور على الدعوة السلفية برمتها وليس الشيخ بمفرده، وإن كان بدرجة أقل طبعا. وبعد الثورة ظل هذا التصور موجودا، وينمو مع الوقت.

وعندما انخرط الشيخ وانخرطت الدعوة في العملية السياسية، ظلت هي، كما ظل هو يرى في نقد يوجه له مجرد هجوم طبيعي كالذي يتعرض له وتتعرض له الدعوة طوال مسيرتها. ومن ثم يقف تصور أن الدعوة دوما مظلومة، حاجزا دون أخذ هذا النقد على محمل الجد، مهما كان حظه من الوجاهة والموضوعية.

وعندما تورط الشيخ وحزبه في عملية الانقلاب التي قام بها الجنرال السيسي، تمظهر بشدة أثر وفاعلية الشعور بالمظلومية على مواقف وردود أفعال الشيخ والحزب:

-فثمة شعور مبالغ فيه في واقع الأمر باللامسئولية عم جرى من مذابح وجرائم بحق الناس، يبديه الشيخ والحزب. إذ أن دوما هنالك من هو مسئول عم جرى: "الإخوان هم السبب، كثير نصحناهم بس يخسارة ماسمعوش الكلام"، "الموضوع كان منتهي والجيش والمخابرات حاسمين أمرهم"، وهكذا

-وفي هذا السياق كمية النقد التي تعرض لها الشيخ والحزب بسبب الوقوف خلف الجنرال، قد غذت بطريقة مدهشة هذا الشعور؛ حيث تم قراءة تهم من قبيل: الخيانة، الغدر، موالاة

أعداء الله، الركون للظالمين، و... إلخ، بأنها حلقة جديدة من ذاك الهجوم الذي نتعرض له طوال السنين من غير وجه حق، فقط قد زاد عن حده، ولكننا كالعادة سنصبر ونحتسب!! ومن ثم لا تجد أن كل هذا النقد بمختلف مستوياته وأساليبه، قد أنتج ولو قدرا ضئيلا من التغيير في مواقف الشيخ والحزب؛ لأن الشعور بالمظلومية يقف حائلا منيعا ضد تسلله للوعي. ومن ثم فنقد الحزب ورموزه هو نقد بلا جدوى، فقط سيغذي الشعور بالمظلموية لديهم أكثر وأكثر، ولن يدفعهم لمراجعة ذواتهم أو إعادة تقييم ومن ثم تقويم مواقفهم.

٧٤-من المعلوم أن مصطلح "المثقف" قد تبلور في الأفق الثقافي الفرنسي في سياق ما عُرف بـ"قضية داريفوس" في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٤). والقضية باختصار تتعلق بضابط الجيش الفرنسي اليهودي "ألفريد داريفوس"، ذاك الذي فجأة حكم عليه بالخيانة العظمى، لكونه تجسس على فرنسا لصالح ألمانيا. والحال أن صاحب الحظ العاثر هذا لم يُحكم عليه بهذا الحكم العنيف لأنه قد تجسس وخان بلاده حقا وصدقا، وإنما حكم عليه لا لشيء إلا لكونه "يهودي"؛ ففرنسا آنذاك كانت تجتاحها موجة كراهية مريرة لليهود، وما داريفوس إلا مجرد ضحية لثلة من المتآمرين على اليهود في الجيش الفرنسي...

ومهما كان من أمر فإن تلكم الواقعة لم تمر مرور الكرام؛ إذ هب عدد من كبار أدباء فرنسا، أتحدث عن أسماء من حجم إميل زولا، أندريه جيد، ومارسيل بروست صاحب الرائعة: "البحث عن الزمن الضائع"، ليعلنوا رفضهم القاطع للحكم على داريفوس، في بيان لهم سمي بـ"بيان المثقفين"، متحدين السلطة السياسية، وظلوا يكتبون مقالات في خدمة القضية حتى تم تفكيكها ومحاكمة المتآمرين على داريفوس. هذه هي إذن تاريخية مصطلح المثقف، فأية دلالة قد وهبتها لهذا المصطلح؟

دلالة المثقف هنا تتحدد ابتداءًا في كونه ذاك المفكر الذي لا ينحجب بفكره عن الشأن العام، وإنما ينزل إلى قلب الساحة العمومية، ليحق حقًا أو ليبطل باطلًا. ثم تتحدد تثنية في

كونه ضد السلطة، يحق الحق الذي تغمطه هي، ويبطل الباطل الذي تقره هي .
وبالتالي، فثمة "رباط أنطولوجي" بين وصف المثقف ومضادة السلطة؛ فما وجد الأول إلا بتحققه بالثانية، كما تفصح لنا تاريخية المصطلح، فالأدباء الذين تسموا لأول مرة بالمثقفين وأصدروا بيانهم ضد الحكم على داريفوس، كانوا على الحقيقة قد أصدروا بيانا ضد السلطة. وعليه فلا مثقف بلا مضادة للسلطة، هذا "شرط أنطولوجي"، أو قل "شرط صحة" إن شئت بلغة الأصوليين، لثبوت اسم المثقف على صاحبه. المثقف "غراب" ينعق باستماتة في رأس السلطة، لا يدعها تهنأ بصفو أو قرار!
من هنا يجوز لنا أن نستشكل هذا المصطلح "مثقف السلطة"، فثمة خرق منطقي هنا: إذ تم الجمع بين نقيضين لا يجتمعان أبدا؛ فذاك المفكر الذي تستعمله السلطة ليروج خطابها ويشرعن سطوتها، هو أبعد ما يكون عن وسم المثقف، فالمثقف ما كان مثقفا إلا لكونه ضد السلطة، ومن ثم فلنسم هذا الشخص بما شئنا من أسماء، إلا اسم المثقف فهو عليه حرام!
ورب درس تعلمناه مع فوكو: المثقف بحسب فوكو ما عاد هو منتج السرديات البارع ليوزعها على الناس، ولا هو منتج الحقائق ورؤى العالم، المثقف ما هو إلا شخص قد نذر نفسه لفضح السلطة وتعريتها أمام الناس، السلطة التي لا تنحصر في حكومة أو في رأس الدولة، وإنما السلطة بما هي "ماتركس" (لو جاز لنا الاستعارة من "آل وتشويسكي")، تتغلغل في كل ثنايا المجتمع، وهو يمسك عصاه-قلمه ليطاردها بإصرار عنيف أينما ظهرت وإينما خفيت.. ومن خلا من هذه الوظيفة فليتخذ لنفسه ما شاء من أسماء وأوصاف، عالم، مفكر، أستاذ، منظر،...ولا ضير، فقط ليبتعد عن وسم المثقف.
ومن درس فوكو هذا يبين لنا أيضا مغالطة خلق ثنائية (المجتمع/السلطة)؛ فيكون العمل في إصلاح المجتمع مجافيًا ومغايرًا للعمل المضاد للسلطة ويكأنهما عملين منفصلين؛ ففي واقع الأمر السلطة تخترق هذا المجتمع الذي نروم إصلاحه حتى النخاع، ففي مسعانا لإصلاح المجتمع ستجابهنا السلطة في كل زاوية منه، ولا مناص ثمة من مواجهتها..ففي ظل الدولة

الحديثة التي "استعمرت عالم الحياة" بتعبير هابرماس الرشيق، صار من العسير تقريبا الفصل بين المجتمع والسلطة! لقد صارا كوجهي عملة، إذ ربما كان علينا أن نواجه المجتمع في صورة السلطة مرة، ثم نواجه السلطة في صورة المجتمع مرة أخرى!

٧٥-"إننا لا نشتكي من اللاتواصل بل بالعكس؛ نحن نشتكي من كل القوى التي تفرض علينا التعبير عن أفكارنا، وليس لدينا شيء مهم نقوله ".

)جيل دولوز(

ما يود دولوز أن يقوله: أن بلوانا ليست فى كوننا نعاني من نوبة زهد عنيف في الكلام والانخراط في أحاديث تلو أحاديث على هامش ما يجري في كل يوم..

ولكن صاحب الاختلاف والتكرار يرى أن المشكلة تكمن في عكس ذلك تماما؛ يبدو الأمر ويكأن ثمة قوى داخلية نابعة من عمق أنفسنا أو خارجية ربما فرضتها علينا الحيثية التي تحتلها ذواتنا في مجتمع ما، تدفعنا دفعا نحو التعليق على كل حدث هنا أو هناك. هذه القوى هي ما ينبغي علينا دفع أي ثمن لنتخلص منها، لأننا لا نمتلك دوما معنى هاما وذا قيمة يمكننا أن نضيفه، ومن ثم تحت سلطانها سنبدأ في قول أي شيء، لنزيد هذه الحياة بؤسا فوق بؤسها بهراء لا يسمن ولا يغني من جوع. إن درس دولوز ببساطة هو: فلنصمت قليلا كي تكون الحياة أكثر احتمالا!

٧٦-كان يروق لميشيل فوكو أن يستعير مقولة كلاوزفيتز الشهيرة: "الحرب استمرارللسياسة ولكن بشكل آخر"، ولكن بعد أن يقلبها رأسا على عقب لتصير"السياسة استمرار للحرب ولكن بشكل آخر.."

السلطة ليست سوى آلة حرب عنيفة، تقتات على أجساد ما تسميهم مواطنيها. ولكن ليس بقتلهم رأسا وإنما بدفعهم إلى الموت ببطء (بسجنهم في مؤسساتها العقابية، أو بتنميطهم خارجها)، هذا الموت البطيء هو ما تعيش عليه.

من هنا كان أخطر ما يهدد سلطة ما، هو أن يقدم الناس على قتل أنفسهم، هنالك تفقد مصدر قوتها: الأجساد التي تموت ببطء. البوعزيزي حرق جسده وتحرر من موته البطيء، فلم تتحمل السلطة خسارة هذا الجسد!

ربما علينا أن نعترف بمرارة أنه لا سبيل لتجاوز السلطة ما دمنا لن نقدر على وضع حد لموتنا البطيء!

لعل حالنا معها يشبه حال هايدجر مع الميتافيزيقا؛ إذ لا يرى فيلسوف المعتكف أنه بمكنتنا تجاوز الميتافيزيقا بنقضها وتفكيكها، فما ذلك إلا ميتافيزيقا ولكن بطريقة أخرى! ما عاد لنا من سبيل لتجاوزها إلا بفضحها، أي بدرك كنهها وماهيتها كما ينبغي..كذلك هو حالنا مع السلطة فيما يبدو؛ ما بقي لنا سوى العمل باستماته على فضحها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا..

٧٧-"الكتابة حيلة عندما لا نكون متعودين على الصيدليات، هي شفاء!"

هذه هي موعظة العدمي الأكثر أناقة: إميل سيوران. الكتابة بما هي ضرب من العلاج، ولكن علاج من أي مرض؟ بحسب سيوران هي ببساطة شفاء من مرض الحياة!

هل نحن مرضى ما لم نكتب؟ ثمة دافع يربض في أنفسنا العميقة يحضنا بعنف على أن نكتب. ربما كان هو "الرغبة في الاعتراف"، لو جاز لنا أن نستغل وجهة نظر هيجل؛ فبحسب فيلسوف يينا: كل واحد يسعى لأن يعترف به الآخرون؛ فمسعى الدولة لو حقق أمره ليس سوى رغبة في أن يعترف بها أفراد شعبها على الدوام. وكل فرد يود أن لو اعترف به

كل من سواه، يُعترف به كشاعر، كروائي، كعالم، كجميل، كمثقف، أو أي كان. هل الكتابة هي تعبير صريح عن هذه الرغبة؟ نحن نكتب لكي يُعترف بنا..

الرغبة في الكتابة نمط أرفع من الرغبة في الكلام؛ ربما نلوم أنفسنا لو تكلمنا كثيرا، لا أحد يلوم نفسه عندما يكتب كثيرا. الكتابة أقدر من الكلام على انتزاع الاعتراف بنا من الآخرين. الذي لا يكتب يشعر بطعنة في كل مرة يقدم فيها اعترافا يطلبه منه كاتب ما، يشعر بضرب من عطالة الذات، أصابه التعب من فرط الاعتراف بالآخر-الكاتب!

نحن لا نكتب على ظهر الورق بل على ظهر الروح، الكتابة بما هي كذلك بغض النظر عن المكتوب. ف"نحن لا نكتب لأننا نملك شيئا نقوله، وإنما لأننا نرغب في قول شيء"..أي شيء!

٧٨-على المرء أن ينفتح على خيباته؛ أن يدرب نفسه على أن يكون من أهل الخسارة. لماذا نعامل خيباتنا بكل هذا القدر من عدم اللياقة؟ نعاملها بتحفظ شرس، لا نتأهب قط كما ينبغي لقدومها، لم نتعلم بعد فن انتظارها. كما لم نتمرن على آداب ضيافة تليق بها. الفكرة هي: نحن نعتبر خيباتنا هي حياتنا وقد انحرفت، مجرد زيغ عن الدرب الذي نصر أن نرسمه لأرواحنا في كل مرة. والحال، أنها جزء أصيل من ذواتنا، تسهم في بنائها تماما كما تسهم ما ندعوه انتصاراتنا. رب خيبة كانت أكثر التصاقا بنا من كل انتصار. أن تكون يعني أن تخيب، ربما كانت حياتنا في مجملها محصلة لهذه الخيبات، والتي نصر دوما على عدم الاعتراف بها كجزء من حقيقتنا. نحن نخيب نعم، ولكن علنا في كل مرة ننقذ المعنى الذي فينا من الضياع!

٧٩-نحن لا نُثير الشفقة عندما نبكي، بل الأليق أن يُرثى لحالنا عندما لا نكون قادرين على البكاء. وحده من لا يبكي يستحق العزاء. من منا يسأل ذاكرته عن آخر موعد لعينيه مع

الدموع؟ أم أن ذاكرتنا أكثر هشاشة من أن تحتمل خفة الدمع؟ نحن نبكي عندما نعي مدى ضعفنا، أمام الجليل أو الجميل. كثيرا ما نبكي تحت وطئة الجليل، ولكن قلما نبكي أمام الجميل. من منا يبكي من الجمال؟ هو ضرب أنيق من الوجع، أن يكون الجمال قادرًا على طعن روحك، فتبكي. الدمع كلام القلب المجروح بالنرجس، من فرط شفافيته ضل الطريق ونزل من العين. هل جربت أن تبكي في الطريق، وسط العابرين المثقلين بقليل من الحياة وبكثير مما يشبه الحياة؟ النظرة في عيونهم، مفعمة بالسؤال أكثر منها بالدهشة، تبادلهم نظرة مبللة بالخجل. الخجل، أن تبكي خجلا من الله، دمعة الخجل لها وزنها الخاص، سيوران يؤكد أنه "يوم الحساب لا توزن سوى الدموع"، فمقل ومستكثر!

٨٠-عندما آن أوان نشر كتاب رائد الفلسفة التحليلية ل. فيتجنيشتاين، رسالة منطقية فلسفية، في العام ١٩٢٢، طلب من الناشر طلبا هو غاية في الطرافة: أن يضيف بضعة صفحات بيضاء في آخر الكتاب؛ حتى يفرغ القارئ الذي لم يفهم شيئا من الكتاب جام غيظه فيها! فيتجنيشتاين كان يعي تماما مدى صعوبة كتابه، كان يشعر إن استدعاء القارئ لهذا الكتاب بمثابة توريطه معرفيا، كان الرجل إذن يشفق بدرجة أو بأخرى على قراءه!

ولكن أية ظروف كتب فيها فيتجنيشتاين كتابه هذا؟ لقد شارك فيلسوفنا وهو النمساوي في الحرب العالمية الأولى، ووقع أسيرا في يد الإيطاليين. لقد كتب الفيلسوف – المحارب كتابه في خنادق الحرب، وهنا يضيف شيخه وصديقه العلامة برتراند راسل: عندما كان فيتجنيشتاين يفكر في المنطق، ما كان لأشياء تافهة كانفجار القنابل أن تشغله!! ربما في ذلك مبرر لائق لعسر الكتاب.

والحال، أن كتاب رسالة منطقية فلسفية هو الكتاب الوحيد الذي نشره فيتجنيشتاين في حياته، بعدما انتهت الحرب، حيث قام بتحريره، وطلب من راسل أن يراجعه ولكن في أرض محايدة! فاتفقا على هولندا إذ ثمة يقول راسل ناقشناه كلمة كلمة وسطرا سطرا. أما باقي

نصوصه وعلى رأسها أبحاث فلسفية فقد جُمعت من بين أيدي الطلاب ومن المخطوطات لتنشر بعد ممات الفيلسوف. وقد تعرض كتاب الرسالة لكم مهول من التأويلات التي ذهبت به كل مذهب، أشهرها تأويل حلقة فينا برئاسة الوضعي المنطقي ر. كارناب.

في واقع الأمر، إن حياة فيتجنيشتاين مزدحمة بكل طريف: فهو إبن واحد من أغنى أغنياء أوروبا آنها، وقد ورث منه أموالا طائلة، تنازل عنها أجمعها لإخوته بكرم عنيف، لم يترك لنفسه ما يقيم به صلبه حتى! ولما كان راسل يلومه في ذلك، كان يجيبه: إن المال مضر ومؤذي للفيلسوف. وكان راسل يتعجب من نبله وعفته، فما كان فيتجنيشتاين ليرضى أن يأخذ منه ولو جنيها قط. لقد عاش الرجل بعدما غادر كامبردج في قرية مغمورة يعمل معلما فيها مقابل قوته فقط، وحتى القوت كانت هذه القرية الظالم أهلها تمنعه عنه!

وفيتجنيشتاين المنطقي والرياضي، وفقيه اللغة، الفيلسوف التحليلي والمهندس المعماري قبل ذلك وبعده، قد مات في ١٩٥١ ولم يترك زوجة ولا ولد. وقد كان متدينا متأثرا بأدب توليستوي الذي تعرف عليه حال أسره، وكان يقول لراسل: أن يكون الرجل خيرا أولى من أن يكون عالما. كان راسل يستعحب من فرط صلاحه، حتى أنه كان يقول: أشعر أن فيتجنيشتاين يراني إمرأ سوء ومن الخطر أن يصاحبني!

٨١-حقا الإقبال كان ضعيفا، ولكن لماذا؟ من الأخطاء المريعة، أن يحاول المرء تفسير الأحداث السياسية في مصر بطرق عقلانية. أو يتصور أن مختلف الوقائع السياسية تنبع عن احتراف وفطنة اللاعبين على مسرح السياسة، بداية من الثورة حتى الانقلاب وما بعده؛ أحيانا يجانب المرء الصواب لا لكونه تكاسل عن التفكير، وإنما لكونه يفكر بعمق أكثر مما يجب! ثمة أمور ينبغي ألا تؤخذ على محمل الجد، فقط تحتاج منا أنا نتعامل معها ببساطة وبقدر غير يسير من السطحية. أحيانا يكمن السر في اللاسر، لا شيء خلف كل هذه الأحاجي الغامضات!

يمكننا أن نسلخ ليلة بأكملها في محاولات مريرة للجواب عن هذا السؤال: لماذا كان الإقبال على الانتخابات بائسا ومخيبا للآمال إلى هذا الحد؟ يبدو الأمر مريبا حقا؛ فالرجل منذ ظهر علينا فجأة وهو يُعامل كنصف إله، طقوس في غير أوانها تمارس. في ضجيج لا يحتمل بكرة وعشيا: غناء ورقص وتزلف وما إلى ذلك، فكيف يغيب هكذا الناس في صمت عن واقعة تنصيبه؟

شخصيا، فكرت في انتداب فوكو في مسعى فضولي ولا أكثر لمزيد من الفهم. لكن هل يستحق الأمر فعلا؟ هل سأقتنع في نهاية المطاف وأخرج مظفرا أقبض في يدي على أجوبة حاسمة؟ إن فوكو لديه الكثير حقا: رب حكم قاس أصدره "الرجل" على العقل الشرقي: إنه عقل رعوي وليس عقلا سياسيا؛ بمعنى أنه لا يفهم السياسة بوصفها مشاركة ذاتية في الحكم، لا ولا هو يرى في الحاكم مجرد شخص ما، مكلف بتدبير الشأن السياسي. وإنما يفهم السياسة بوصفها رعي للقطيع البشري، والحاكم ما هو إلا راعي هذا القطيع من الأجساد البشرية في جغرافيا دولة ما. إن فعل الانتخاب الحر ضرب من ضروب السياسة ولا يمت بصلة لحرفة الرعي. ومن ثم علينا أن نحترز من تأويل أي انخراط سابق للشعب في ممارسة ديمقراطية حرة بوصفه فعل سياسي جاد، وإيمان بدور الذات في ما هو سياسي، وإنما هو انخراط يقف خلفه دوافع لا سياسية بالمرة، ربما دوافع شخصية وعاطفية أو أي شيء آخر سوى الدافع السياسي المحض!

إن حمل الأعلام والرقص على أنغام الغناء السياسي ليس فعلا سياسيا عقلانيا، هو اشتباك عاطفي خالص. ومن ثم لا عجب من أن يتفاعل الناس بحماس محموم مع أغنية تحض على المشاركة في الانتخابات، أو يزين الناس بيوتهم وسياراتهم بأعلام البلد، ثم يتغيبوا عن واقعة انتخاب، لأن الأخيرة هذه سياسية. الشعب يريد أجواء الكرنفالات والطقوس المليئة بالألعاب النارية والرقص، لا أجواء السياسية. ينبغي ألا نُصدم عندما نجد من سينزلون للاحتفال بتنصيب السيسي أكثر ممن نزلوا لانتخابه أصلا!

ربما تبدو الاستعانة بفوكو مثمرة، هل ينبغي علي أن أعتقد أني قد قدمت الجواب؟ لا، وما ينبغي لي. علينا ألا نأخذ الأمور على محمل الجد، في واقع الأمر ليس ثمة سر نحتاج أن نفتش عنه. بل نحتاج فقط أن نصمت بأعلى صوت. الناس هنا على مذهب الجوكر كما قال (كاذبا) في the dark knight: "i just do things" إنها انفعالات وعواطف وأوهام تخرج للعلن، وليس ورائها من شيء يستحق عناء البحث عنه!

٨٢-كم يبدو المرء مثيرًا للشفقة عندما يكون معتادًا على أن يكتب، ولما تخونه اللغة وتضن عليه بالمعنى – وهي لا تتورع عن فعل ذلك أبدا – يُصر أن يكتب رغما عنها، آنها يقدم لنا شيئا بائسًا تماما..

لقد كان من حال المثاليين الألمان، الثلاثي: شيلنج، فيشته، وهيجل، أنهم يخسفون من قدر الفيلسوف أمام نسقه الفلسفي؛ فبحسبهم، من يتفلسف على الحقيقة هو النسق وليس الفيلسوف، ما الأخير إلا محل منفعل قد منّ عليه النسق وقرر أن ينطق على لسانه. إنه الفيلسوف وقد انمحى في فلسفته. لماذا لا نأخذ بتعاليم هؤلاء، وندع أفكارنا تختارنا بحرية وقتما تشاء؟

كان هايدجر بصر على أننا لا نتكلم اللغه، بل هي التي تتكلمنا! هذه ليست شطحة أخرى من شطحات فيلسوف الكينونة. ربما كان علينا أن ننصت له فعلا، وندع لغتنا تختارنا وتجود علينا وقتما تشاء!

للغة إمبريالية تكلم عنها ر. بارت، نحن خاضعون لها ولا بد. إن محاولة قسرها وتكلمها رغما عنها ونحن تحت تأثير الرغبة في الحضور الدائم أمام الآخر ككتاب، تحرجنا بقسوة أمام أنفسنا وأمام هذا الآخر. ربما يجدر بنا أن نخضع مزيدًا للغة، ولنصمت حتى تقترح هي علينا الكلام!

٨٣-هل تضحك السلطة؟ هي روح بئيس وكئيب، تستمد حياتها من موتنا المؤجل. هي تريد أن تبدو جادة وصارمة كمحاولة أخيرة للحفاظ على الجزء المتبقي من مهابتها الضائعة. لذا هي لا تحتمل السخرية بكل هشاشتها! أن تسخر من السلطة يعني أن تطعنها بخفة، توجعها وأنت بكامل أناقتك. السخرية تلحق بالسلطة جروح خطيرة ومزمنة وبلا أمل في الشفاء. إنها حيوية قصوى لا تستطيع السلطة-الموت التعايش معها. هي بلاغة السلطة وقد انقلبت عليها، إرهابها وقد رد إليها ولكن أكثر وداعة، إن السخرية حقا ترهب السلطة وبلا شراسة. معارضة السلطة هي خير خادم لها، لكن السخرية منها بلاء مبين لن تقوى عليه؛ إنها تجرد السلطة من أي رجاء في الاعتراف بها كقدر ليس لنا منه بد!

٨٤-سلخ الفرنسي مارسيل بروست عقد ونيف في كتابة تحفته "بحثا عن الزمن الضائع"، ومعلوم، أن ملحمة السرد هذه تقع في سبعة أجزاء وتتضمن أكثر من مائتين شخصية روائية. وعندما أراد بروست أن يكتب السطور التي تصف احتضار أحد شخوصه هؤلاء، ترك مكانها فارغا وأكمل روايته، على أن يعود لكتابتها مرة ثانية، لماذا؟ أراد بروست أن لا يكتب هذه السطور فى حال عافيته، ستكون سطور ميتة حينئذ، هو سينتظر إلى أن يمرض مرضا شديدا يوشك أن يكون احتضارا، ثم يكتب هذه السطور آنها، إنه يريد أن يصف احتضار شخصيته وصف من عاين وخبر، وصف من ذاق حقا وصدقا، لا يريد أن يكتب كمشاهد من بعيد. وفعلا، يمرض بروست – وهو المبتلى بالربو – عن قريب، وليكتب هاتك السطور كما أراد لها أن تكون..

والحال، أن شأن بروست ما كان بالشأن البدعي؛ فها هو سلفه جوستاف فولبير، يتحدث عن حاله مع روايته الأشهر "مدام بوفاري" (والتي أوحي له بفكرتها هنا أمام نيل القاهرة) قائلا: لقد شعرت بطعم السم في فمي، وأنا أكتب مشهد انتحار السيدة بوفاري بالزرنيخ! إحساس بلغ المنتهى بما يكتب، فناء تام في عمله الأدبي..

الكتابة معاناة أو لا تكون. بميسور المرء أن يكتب كل يوم، لكن ليس أبدا عليه بيسير أن يكتب شيئا جديرا بالذاكرة، شيء يستحي منه النسيان!

٨٥-يا اسمي المؤنث!..

إنه درويش المطعون بالشعر وبالمرأة. ماذا بوسع القلب الذي تعلم الحبو على يد حبكِ منذ أول الطريق، أن يقول أكثر؟ مهما ضاقت بنا الأبجدية فإنها تترك لنا فرجة نتلصص منها على المعنى، نحسه ولا نقبض عليه، هي تسمح لنا فقط بالوقوف على الحافة. وهنا تحديدا يأتي دور الشعر؛ هو من يفتح لنا هذه النافذة على ساحة المعنى، الشعر بما هو انفتاح للغة على أقصاها. وحده شاعر "من أهل الخسارة" تمرن جيدا على حرفة المجاز، يمكنه قيادة اللغة إلى حدود فتنتها، هو يعلمها فن حكاية ما نعجز في كل مرة عن قوله لأنفسنا. إلى أي مدى نحن نشبه (أو نعتقد أننا نشبه) من نحبه؟ هل نحبه لأنه يشبهنا؟ أم هو يشبهنا لأننا نحبه؟ المرء هنا لا يرى بوضوح، فقط هو يشعر ببساطة أن جزءًا منه هناك في روح من يحب، لا يدري متى ذهب أو لماذا ذهب أصلا؟ فقط هو يعثر عليه. أحيانا، يكون هذا الجزء هو أهم ما فينا أو كل ما فينا في واقع الأمر، لا تدري آنها أين هي ذاتك بالتحديد؟ هي هنا، فيك، معك بقدر ما هي هناك، في، مع من تحب. هي أنا إذن، كل ما في الأمر أنها في صورة أنثى. يا اسمي المؤنت!

٨٦-المرء لا يشعر بالخيبة إلا إذا كان النصر ممكنا له ابتداءً. ولا يفتقد إلا من كان وصلهم متاحا له أصلًا. إن شيئا لم يُتح لنا تملكه يوما ما، لا يؤلمنا خسرانه، إمكان تملكه هو ما يجعل فقده ذا بال في واقع الأمر. كريس. نولان في خاتمته لثلاثية فارس الظلام: صعود فارس الظلام، جعل بلاء فارسه بأن يُترك محطمًا في سجنٍ زجه فيه الشرير باين. أي شيء أكثر إيلامًا في ذاك السجن؟ لا رجال متوحشون ثمة، ولا حراس يجلدون الناس بالسياط. إن

مصدر العذاب حقا هناك هو: الأمل! (والأمل هو ألم لذيذ لو حقق أمره.) إنها فتحة في سقف السجن ليس على المرء سوى أن يتسلق إليها، ليصبح خارج السجن محررًا. ولكن تلك الفتحة قد أرهقت الكثير صعودًا، وبلا جدوى، يصعد كل واحد ثم يسقط قبل الوصول متعثرًا. الصعود صعب ولكنه لا يزال ممكنا، وثمة من تمكن منه ولو قبل زمن. هناك أمل إذن في النجاة، وهذا هو ما يعذب أهل هذا السجن بكرة وعشيا. اليأس التام لا يؤلم، وحده المشرب بأمل هو ما يؤلم!

٨٧-هل نحن نشتكي من غياب الدولة أم من حضورها المفرط؟ الدولة موجودة في كل مكان، ولكنها بلا معنى في أي مكان. إنها عدمية السلطة، عدمية خاملة بلغة نيتشه. ليس بميسور المرء أن يجيب بوضوح على هذا السؤال: ماذا تريد الدولة؟ وإن كان ثمة ما تريده حقا، فما العلاقة بينه وبين أفعالها المختلفة؟ السلطة كيان غير عقلاني بالمرة، ومهما حاولت أن تخفي ذلك. هي تريد أن تنهي التاريخ بدرجة أو بأخرى، كل سلطة هي رغبة خفية في وضع نقطة النهاية لمسار التاريخ، إنها في سعي مستميت للسيطرة على كل شيء، ولكنها دوما عاجزة عن تبرير نفسها، عن تقديم معنى ما، إن السلطة عاقر ليس بمقدورها أن تنتج المعنى. لذا هي في خطابها تتوسل باستراتيجيات أسطورية لا معقولة، لتداري على غياب المعنى، إنه خطاب بلاغي في منتهاه، لغو سياسي لا يغني ولا يسمن من جوع. تلك هي عدمية السلطة!

٨٨-في سِني تلمذته اشتغل جاك دريدا مساعدًا لعددٍ من كبار فلاسفة فرنسا، نتحدث عن أسماء من حجم فيلسوفي العلم باشلار وكنجلهيم، وفيلسوف الترحال بول ريكور. وأيضا اشتغل مع واحدٍ من أهم شراح هيجل، ومن فك في واقع الأمر الحصار المضروب على فلسفة هيجل في فرنسا، أتحدث عن جان هيبوليت. والحال، أن هذا الأخير عندما طلب منه

دريدا أن يُشرف على أطروحته، رفض متحرجًا، قائلًا له: كيف أشرف عليك؟ إنني لا أعرف على وجه التحديد ما هي وجهتك!

قد يصعب على المرء أن يحدد بوضوح وجهة دريدا، أين يريد أن يذهب هذا الرجل؟ ربما كان هيبوليت معذورًا حقًا. إن الأمر مبرر وسائغ تمامًا في حالة فيلسوف التفكيك، ولكن، ألا يصح أن نجر حيرة هيبوليت هذه علينا كلنا؟ أي نطرح بعنف هذا السؤال على أنفسنا: ما هي وجهتنا؟ أو ماذا نريد بالفعل؟

إنه سؤال مرعب من فرط بداهته. مكمن الخطورة هنا ليس في كون كلٌ منا قد لا يعلم ما هي وجهته، وإنما في كوننا نظن دومًا أننا نعرف وبوضوح ما هي وجهتنا. والحق أن المرء حال يطرح على نفسه العميقة هذا السؤال، لا يستطيع بيسر أن يقدم له جوابًا يقنع ذاته هو، ربما يلجأ إلى عموميات القول يحتمي بها من لفح السؤال، أو يؤثر صمتًا مثقلًا بالبداهة. غالبا ما نحيا ونحن في غفلة أنطلوجية عن هذا السؤال الجذري، تقودنا الحياة من نواصينا في دربٍ يتلوه درب، تصنعنا أكثر مما نصنعها، فقط نظن وفي كل مرة أننا وبحق نعرف وجهتنا!

٨٩-أحيانا عندما يقف المرء على ربوة عالية، تراوده رغبة غريبة في القفز، إنها رغبة يصعب تبريرها بوضوح، هو لا يريد قطعا أن يموت، لا علاقة لهذا بالرغبة في وضع حد لهذه الحياة البائسة، هي مجرد رغبة عابرة ومبهمة لا أكثر. لعلها هي إرادة السقوط؟ السقوط هنا رمزي تماما، يعني الرغبة في التحرر من عبء ما؛ ربما لم يعد هذا المقام العالي الذي تحتله أنفسنا مقنعا لنا، ثمة ما هو ناقص رغم كل شيء. أو لعله قد صار ثقيلا على أرواحنا الهشة. هل الرغبة في السقوط إذن هي محاولة للبحث عما هو ناقص، ولكن في مكان أقل ارتفاعا هذه المرة؟ ربما نكون أكثر إقناعا لأنفسنا هناك. أم هي رغبة في التحرر من ثقل كينونتنا؟ ربما نكون أكثر خفة وأكثر احتمالا لو نزلنا لأسفل قليلا.

أو ربما كانت الرغبة في السقوط ضرب من الخيانة، خيانة الذات، أحيانا يضيق المرء بقوانينه التي سنها على حياته، هي رغبة إذن في الخروج عليها، الخروج من الصف بتعبير كونديرا الذي اخترنا الوقوف فيه ثم السير في المجهول. أحيانا يتقبل المرء فكرة الخيانة هذه بسهولة ، يتخيل نفسه كثيرا أنه قد سقط إلى حيث لم يكن يوما ما. أو يتقبل بسهولة أكبر أن يسقط من سواه؛ عطيل شكسبير تقبل فكرة سقوط دزدمونة بسهولة مريعة، لم يصمد أمام وسوسة ياجو الخبيث ولو قليلا!

لا أدري هل الوقوف ليلا على جسر يطل على نيل القاهرة هو ما يدفع بهذه الأفكار المتطرفة أم هي سمة كل مكان مرتفع؟ على أية حال عليّ أن أحرص ألا أكون وحيدا هنا في المرة القادمة!

٩٠-الفرحة شعور مربك للذات، في لحظة يعطيها كل شيء ولكنه أيضا يأخذ منها كل شيء، الفرحة تشعرنا بالإمتلاء، تكسب وجودنا مذاقا أنيقا، ولكنها في الآن نفسه تجرح نرجسيتنا، تضعنا وجها لوجه أمام نقصنا، ما يفرحنا هو شيء نحتاجه بكل ما فينا، شيء لا غنى لذواتنا عنه بحال. ليس بوسع الذات أن تفرح بمعزل عن الآخر، الفرحة ليست فنا فرديا أبدا، في كل مرة علينا أن نبحث عمن يفرح معنا، الفرحة بلا رفيق للروح خرساء وناقصة على الدوام. إنها بمثابة إعلان واضح تماما عن حاجة ذواتنا لآخر. كم كان ريكور جميلا حينما أصر على أن الطريق إلى الذات يمر حتما عبر الآخر...

٩١-على المرء ألا يخضع لسطوة الانطباعات الأولى، فغالبا ما يكون بادي الرأي مضللا، إن الأشياء الثمينة لا تكشف لنا عن سرها بسهولة، متعنتة هي دوما وتحتاج منا لقدر غير يسير من الإلحاح، كي تُرضي غرورها المبرر على أية حال..

عندما عُرض الجزء الأول من رائعة مارسل بروست البحث عن الزمن الضائع، على الناشر الفرنسي المرموق غاليمار، دفع به إلى أندريه جيد ليبتليه على ذائقته الفنية، ويفتي دار النشر في أمره، هل يصلح للنشر أم لا؟ وقد كان رد جيد حاسما في واقع الأمر: هذه رواية رديئة ولا يجوز لدار نشر بحجم غاليمار أن تنشرها ..

ولكن مهلا..فمصير بروست لم يكن معلقا بعبارة خرجت من فم أندريه جيد على عجل؛ لقد نُشرت الرواية على يد دار أخرى أكثر تواضعا أو أكثر تبصرا من غاليمار، وحققت نجاحا لا بأس به، نجاحا دفع جيد إلى إعادة قراءة عمل بروست ولكن بتركيز أكثر هذه المرة، فذهل تماما، وكان لا يستطيع أن يترك الرواية من يده لأيام متوالية. لقد أرسل جيد لبروست اعتذارًا رسميا، وطلب من غاليمار أن تعتذر هي الأخرى، وبالفعل اعتذرت الدار وطلبت من بروست أن تأخذ حقوق نشر الرواية مرة أخرى، كتكفير عن إثم رفضها لها أول مرة، ولكن بروست أبى !

ومهما كان من أمر، فإن رواية بروست هذه والتي لم تنشر كاملة إلا بعد موته، تعتبر أطول عمل سردي في التاريخ، فتقريبا ينبني نصها الفرنسي من مليون ونصف مليون كلمة، موزعة على سبعة أجزاء، وصارت واحدة من أهم روايات القرن العشرين إن لم تكن أهمهم على الإطلاق، وخلدت اسم بروست إلى الأبد، رغما عن أنف أراء أندريه جيد المتعجلة!

لم يختلف الأمر كثيرا مع مُجايل بروست الأديب الإنجليزي جيمس جويس؛ وجويس في عين الأكثرين هو الروائي الأهم في القرن العشرين، ومدشن لنمط من السرد الروائي لم يكن معهودا من قبله. عندما كتب روايته الفريدة أوليسيس (عوليس)، والتي يقول فيها لقد كتبتها لتعذيب البشرية! نصا فريدا بحق، ابتكر فيها أساليب لم يكن بوسع غيره أن يلبس الإنجليزية إياها. دريدا نفسه قد ارتبك أمام هذا النص، ولم يغن عنه التفكيك شيئا، لم يملك إلا أن يبدي انبهاره اللامحدود أمام جويس وروايته. والحق أن ترجمة هذا النص هي عمل مذل حرفيا، ضرب من ضروب الأعمال الشاقة. يمكننا أن نستنبئ عن ذلك كل من طه محمود طه

وصلاح نيازي فهما قد تجاسرا على نقل عمل جويس للعربية، الأول قد سلخ جل عمره في إنجاز هذه الترجمة ، وحال الثاني ليس عنه ببعيد !

أقول، أن جويس عندما كتب روايته هذه، كان يتسول بها على أبواب الناشرين، والتي كانت تُصفع في عقبه بقسوة في كل مرة، فلا أحد مقتنع بأن رواية كهذه سوف يكون لها شأنا يوما ما. فقط ناشرة فرنسية مغمورة قررت في لحظة حمق أو لحظة حظ أن تنشر عمل جويس، وأعطته جنيهان فقط لا غير في مقابلها. هذه الرواية التي ستصير إلى ما صارت إليه، أي على رأس قائمة الروايات الأهم في القرن العشرين إن لم يكن في القرون أجمعها، جنبا إلى جنب مع البحث عن الزمن الضائع. والتي سيصير الناس يتفاخرون بقراءتهم إياها (مارلين مونورو وهي التي لم تعوزها أبدا الشهرة كانت تصر على التقاط صور لها وهي تحمل رواية جويس بين يديها!) قد تقاضى صاحبها عليها أجرا بالكاد يكفي لشراء جرعة ماء!..

٩٢-مربكة هي علاقتنا بآمالنا، نحن ندرك غالبا ما نريد أن نكونه متأخرًا، آمالنا ليست إذن أمامنا لنطاردها، لقد سبقناها بالفعل..

قد نظل نستجدي آمالنا حينا من الدهر وتتأبى كقديسة، نيأس من فرط إعراضها عنا، فتتسلل الرغبة فيها من قلوبنا رويدا رويدا، وحينما نوشك أن نزهد فيها تأتينا على حين غفلة من أمرنا أو من حيث لا نحتسب، تماما كما جاء ماريوس على أكتاف جان فالجان إلى عتبة كوزيت!

قد يتفق وتأتينا آمالنا دفعة واحدة وقتما نشاء، هذه هي إذن الحياة لا جدال. فجأة تتساقط من بين أيدينا تماما كما يتساقط أبطال كوانتين ترانتينو في نهاية كل حكاية، ليست المشكلة في مجرد موتهم وإنما في الطريقة التي هم بها يموتون، موت سخيف وسلس بدرجة مذهلة، لا يتناسب قط مع مسيرتهم المريرة طوال الحكاية، الموت مع ترانتينو سليط اللسان حدث بسيط

تماما، ولا يحتاج لمقدمات كثيرة أو تراجديا تضغط على النفس، ليس لأبطال ترانتينو أوديسه ما، هم فقط يموتون! هكذا قد تُقتل أمالنا فجأة ودفعة واحدة ببساطة زائدة عن الحد!

٩٣-فكرة أن كل شيء حتما سينتهي، تجعل من المرء كائنا خفيفا، لا يطلب من الحياة أكثر مما تستطيع هي أن تعطيه، كائنا لا يتقن حرفة الإلحاح، لا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما أوتي. منفتح على خيباته يتلقاها بصدر رحب تماما كحاله مع انتصاراته (لو سمح لنفسه أن يسميها بهذا الإسم). قلما يصر على شيء ولو اتفق وفعل فإصراره أنيق يشبه في خفته إصرار كريستوف والتز على تذكيرنا في كل مرة بأنه رجلا ألمانيا وسيظل. وأنه لا يجوز لأحد أن يظن أن خضوعه المتكرر أمام كوانتين ترانتينو سيجعل منه أمريكيا يوما ما! إن شهود نهايات الأشياء يفرغها بعنف من حمولتها الثقيلة، يكسبها قدرا لائقا من الهوان مما يجعلها هي الأخرى خفيفة، تماما كهذا الكائن الذي يوشك أن تصير خفته لا تحتمل بعبارة كونديرا..

٩٤-"دور الفيلسوف الحقيقي ليس اكتشاف ما هو خفي، وإنما جعل ما هو مرئي مرئيا على وجه الدقة؛ أي العمل على إظهار ما هو قريب جدا منا، ما هو راهن أمامنا، ما هو ودي بالنسبة إلى أنفسنا، والذي بسبب ذلك لم نعد نراه." (فوكو)

لم تعد الفلسفة مع فوكو إذن مجرد لغو ميتافبزيقي، وأحاديث عن مستغلقات مبهمة، وإنما هو قد أنزلها - مقتفيا خطة كانط - إلى اليومي والمعيش. ليس على الفيلسوف إذن أن يحدثنا عن غرائب وأسرار فكرية، وإنما هو يحاول وسعه أن يلتزم بتعاليم هايدجر و"يتكلم بأبسط الكلام عن أبسط الأشياء". الفكرة هي: ليس الشأن فيما هو غائب عنا وإنما فيما هو بين أيدينا بالفعل. إن أشياءً من فرط قربها منا لم نعد نراها، ومهمة الفيلسوف أن يقفز

في المساحة الضيقة بيننا وبين تلك الأشياء القريبة، لا ليباعد بيننا وبينها، وإنما ليساعدنا على مزيد من الرؤية الحقة لها.

٩٥-لا شيء يرهق المرء قدر شعوره بأن ثمة فجوة بين روحه وعمره، أن يشعر بأن أحدهما يسبق الآخر، أحدهما هنا كلمة مضللة بدرجة ما، فالعمر هو الذي يسبق غالبا. إحساس فظيع بالنقص أن يكون الإنجاز الروحي للمرء لا يليق بعمره، قد أتت الروح متأخرة إذن عن العمر. يخوض المرء سباقا مع الزمن نتيجته محسومة منذ البداية، فلا أحد بميسوره أن يذيق الزمن طعم الخسارة. أن نشعر بأننا لسنا على ما ينبغي أن نكون عليه، شعور قد يطمئن المرء بأنه ما زال حيا بصورة مبشرة لكنه يفقده القدرة على أن يكون سعيدا بحاله. ولكن ما هو الإنجاز الروحي الذي سنقيس عليه الخسارة وحجمها؟ جواب هذا السؤال متنوع بقدر مريع بحيث يكفي للتيقن بأن الزمن قادر حقا على سحق الجميع. هل يستسلم المرء إذن ويتواطئ ولو خفية مع الزمن على نفسه؟ بمعنى أن يرضى بالسير متأخرًا عن عمره. الاعتراف بالخسارة مبكرا لا يجعل المرء يطمئن بأنه ما زال حيا بصورة مبشرة، ولكنه قد لا يفقده القدرة على أن يسعد بما هو عليه.

٩٦-ثمانية أعوام قد خلت على آخر ظهور مؤكد لباتمان. هذه هي الفترة الزمنية التي تفصل بين أحداث فارس الظلام وصحوة فارس الظلام. ما السبب الذي دفع الرجل للاختفاء طوال هذه الفترة؟ خسران من يحب، إنها ريتشل رفيقة العمر التي حولها الجوكر إلى أشلاء. لقد غابت فلم يقوى هو على الحضور دونها في هذا العالم. الفكرة هي: على المرء أن يحرص على قضاء وقته برفقة من يحبهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وحدهم قادرون على خلق البهجة من أشد الأمور بساطة وابتذالا؛ فأن يأكل المرء وحيدا لهو أمر يستحق الرثاء كما يؤكد كونديرا، أما أن يأكل المرء مع من يحب، فهذا مصدر للسعادة يصعب تبريره من فرط

بساطته. وحدها أشياء بسيطة وبلا تكاليف يمكنها أن تجعل هذه الحياة أكثر احتمالا. على المرء ألا يضيع فرصة للقيا من يحب، لأن الدنيا حتما ستحرمه منه يوما ما.

٩٧-الإخوان والسلفيون: مَن يؤثر في مَن؟

-ثمة علاقة جدلية بين الفكر والممارسة؛ فحاملوا كل فكر يسعون إلى تنزيله من سماء التنظير إلى أرض الواقع، ولكن في الوقت عينه تكون الممارسة مادة مُنتجة للفكر؛ فعندما يحتك الفكر بالواقع ليغيره، يبادله الواقع نفس الفعل، حيث يُخضعه للمسائلة الدائمة، مُحدثاً تغيرات في بنية هذا الفكر

-ينطلق كل من الإخوان والسلفيين في ممارساتهما الدعوية/ السياسية ، من بنية فكرية ليست واحدة(ثمة تقطاعات كثيرة، وثمة تمايزات قليلة)، يسعى كل منهما من خلالها لتغيير الواقع، وبحسب ما طرحته آنفا من جدل التأثير بين الفكر والواقع، يُفترض أن توثر الممارسة في البنية الفكرية لكل منهما.

-تتبع الممارسة الإخوانية، دفع الراحل "حسام تمام" إلى اعتبارها أثرت في البنية الفكرية للجماعة في اتجاه البنية السلفية، فيما سماه ب"تسّلف الإخوان."

-وفيما بعد الثورة حيث اشتبك التيار السلفي بالفضاء السياسي، تتبع الممارسة السلفية، دفعني أنا والرفيق Kareem Mohmed إلى اعتبارها أثرت في البنية السلفية في اتجاه البنية الإخوانية، فيما يمكننا وسمه ب" أخونة السلفيين"

-وعليه يمكن القول أن الواقع أحدث ثمة تأثير جدلي/ متبادل بين الإخوان والسلفيين في المجال العام، في اتجاهين متقابلين كالآتي:

-في الجانب الدعوي: اتجاه التغيير يكون من البنية الإخوانية إلى البنية السلفية، فالممارسة -الدعوية الإخوانية تتجه صوب السلفية (تسلف الممارسة الإخوانية الدعوية(

-في الجانب السياسي: اتجاه التغيير يكون من البنية السلفية إلى البنية الإخوانية، فالممارسة السياسية السلفية تتجه صوب الإخوان (أخونة الممارسة السلفية السياسية(

-إنها حقاً ممارسة منتجة للفكر تتدفعنا لإلقاء نظرة محتشمة على ذلك المغضوب عليه"ماركس"! حين نظّر لكون الواقع هو من يصنع الفكر، فقط سنستبدل "هو من يصنع" ونضع كلمة" يؤثر"، ثم نشيح النظر عنه ولنصب عليه جام اللعنات!!

٩٨-على قدر ما اتسع قلب يعقوب لحب يوسف، على قدر ما اتسع للوجع به.

ظالم لنفسه من علّم قلبه كيف يحب، ونسي أن يدربه طويلًا على تحمل الوجع؛ فالحب يولد والوجع معلق بهدبيه!

يعقوب النبي قد أنقذه قميص الأمل، المبلل برؤيا صغيره عن شمس وقمر والكواكب

قبل أن يخطو به القدر على أكف إخوته نحو الجبْ.

أما نحن العرايا من قمصان يوسف

ولم تبشرنا بعد النبوة بالرؤى

علينا أن نحتاط لأنفسنا جيدا من فخاخ الحب-الوجع!

٩٩-في سياق تحليله لأنماط وجودنا في هذه الحياة، تحدث "هايدجر" عما أسماه "السقوط"، فماذا يقصد فيلسوف الغابة السوداء من هذا المفهوم؟ ومن ذا الذي يسقط؟ وفي ماذا هو يسقط؟

يرى "هايدجر" وعلى وجه العموم، أن وجودنا عبارة عن أفق مفتوح من الإمكانات (القدرة على القيام والقيام بأفعال معينة)؛ بمعنى أن الإنسان دوما ينفتح على العالم من خلال وضعية معينة (تحددها مثلا وظيفته، مكان معيشته،...)، هذه الوضعية تتيح للمرء إمكانية حياة

معينة، ثم هذه الإمكانية تتيح له بداخلها إمكانيات أخرى وكل واحدة تنفتح على إمكانات أخرى، وهكذا مع الوقت، بحيث يصير وجودنا أفق مفتوح من الإمكانات.

هذه الإمكانات تستغرقنا تمامًا، بحيث لا تتاح لنا فرصة التدبر مليًا في كينونتنا، أو في الأشياء من حولنا حتى أبسطها قدرًا، (ف"هايدجر" يوصينا دومًا ب"أن نتحدث عن أبسط الأشياء بأبسط الطرق")، بحيث تكون حياتنا بمثابة نسيان للحياة، ووجودنا نسيان للوجود!

هذا النسيان ينتج عنه ما يعبر عنه "هايدجر" ب"اليومي"؛ وهو الوضع الذي يتشكل من مجموع تفاعلات من نسوا وجودهم وانخرطوا في إمكانياتهم، وهو وضع ثابت يمكن التعبير عنه بأنه: ما يفعله الناس دوما واعتادوا عليه، وضع صاحب مليء بالثرثرة وخالي من المعنى.

وبحسب موقف المرء من هذا "اليومي" يتحدد نمط وجوده: إما أن "يسقط" فيه ويدور في فلكه، فيعيش كما يعيش هذا المجموع، فيفعل ما يفعلون ويتكلم فيما يتكلمون. وبحسب "هايدجر" فإن هذه السقوط عبارة عن هروب المرء من الدين المعلق في رقبته: وهو تحقيق وجوده الخاص، أي أن المرء يريح نفسه ويختار أن يسقط في "اليومي"، ويعيش كما يعيش الناس، هذا النمط من الوجود يسمه فيلسوفنا ب"الوجود الزائف."

أما "الوجود الأصيل" فهو الذي يختار فيه المرء أن يفي بدينه وينشغل بتحقيق وجوده الخاص، بهروبه من "اليومي" وتجنب السقوط فيه.

فمن يا ترى منا قد سقط في "اليومي" ومن منا قد نجا منه؟ من فينا يسعى للوفاء بدين وجوده، ومن منا قد أراح نفسه وعاش كما يعيش الناس؛ من نسوا الوجود، ونسوا الحياة؟

إن "درويش" قد أوصانا ذات قصيد: "وكن من أنتَ حيث تكون...واحمل عبء قلبك وحدهَ"... فكن من أنتَ حيث تكون...

١٠٠-الانتظار..

يثقل كاهل الوقت،

يتيح للملل فرصة جادة للتسكع على رصيف أرواحنا المنهكة..

لا تخلو ساحتنا أبدًا من أفق انتظار ما :

أمنية مخاتلة تحترف الغدر،

رعشة الحب الأولى،

الأوجه الغائبة،

لون بسمتكِ، إيقاع صوتكِ،

نهاية تليق بالحكاية،

طعم الحياة،

أو الموت أحيانًا!

الانتظار يكشف عن عمق الخواء بداخلنا؛ قل لي ماذا تفعل وقت انتظارك؟ أقل لك من أنت!

ربما كانت حياتنا هي محصلة انتظاراتنا لما هو مرجأ على الدوام!

١٠١-من مفارقات نيتشه وما أكثرها في واقع الأمر، أن نصوصه عامرة بالهجوم على المرأة والانتقاص منها؛ فمثلا تراه يكرر وبإصرار هيستيري: أن المرأة مصدر كل الحمق والجنون. كذلك قد جعلها مضرب المثل في الخبث والمكر، فيقول عما زاد خبثه ومكره: لقد أصبح أنثويًا!

ثم إنك واجده، وهو فيلسوف إرادة القوة، قد انهار تمامًا على يد امرأة، تلميذته (نيتشه كان بروفيسور لفقه اللغة وعلم اللغة المقارن) "لو دي سالومي"، والتي ما كانت ترجو منه أكثر من الصداقة، بينما هو قد أرادها زوجة ترافقه وهو المتوحد لأبد الدهر.

ولك إذن أن تتخيل نيتشه العاصفة الهوجاء وبهلوان الأبد، الذي يتفلسف على وقع المطرقة، وهو راكعا أمامها وقد بللت دموعه الأرض، بعدما رفضت أن تتزوجه!

كانت آلام فيلسوفنا والتي أودت به إلى الغيبة التامة في نهاية المطاف متنوعة بلا شك، ولكن يبقى إعراض "سالومي" عنه على رأس القائمة..

بعد إعراض "سالومي" عن نيتشه، كتبت عنه كتابًا عبقريًا: نيتشه من خلال أعماله، وعندما وصل هذا الكتاب إليه، كان يلتهمه التهامًا، وكان نادرًا ما يرفع عينيه منه!

المرأة واقعة ليس للرجل منها مناص، أزمة يحتال للخروج منها بالوقوع فيها!

ألبير كامو العدمي الساخط على الوجود برمته، قد قال في حقها: المرأة هي رائحة الجنة على الأرض!

هل كان نيتشه يتبنى نفس رأي كامو، لكنه فقط قد عبر عنه بطريقة مختلفة؟

-١٠٢

(1)

كنتُ ثورة نعم ولكن بلا ثوار،

ربما جئت قبل الأوان.. أو ربما بعد الأوان

أبنائي هم من حفروا قبري،

بينما أعدائي يأتون كل عام لنثر الورود على شاهده!

(2)

يبدو أن الكثير صار يؤمن بمقولة "فاليري": "والجلد هو أكثر الأشياء عمقًا"، كان ينصح كل أطباء الـ "dermatology"بكتابتها على عياداتهم؛ من باب الفخر ونشر الحكمة. لا أحد يريد أن يتعمق مزيدًا عن سطح الأشياء، السطح مريح بينما الحقيقة مؤلمة بدرجة قد لا تُحتمل!

(3)

مازال الإنسان يبهرنا بقدراته المريعة على فعل الشر، "نيتشه" كان يجادل "دارون" قائلًا:

"والقرود أكثر طيبة من أن يتحدر الإنسان منها!"

كان "هوبز" يتلعثم كلما سألوه عن الزمان الذي حصلت فيه حالة الطبيعة التي كان يصفها بـ"حرب الجميع ضد الجميع". لم يكن يعلم أنها ستكون في مستقبل البشرية لا في ماضيها الأول!

(4)

لماذا نجحت عملية تفجير مديرية الأمن اليوم؟

لأن حراستها كانت موكولة بفرق النينجا وأصحاب الدروع الحمراء المخيفة!

(5)

بالرغم من كون المباراة وقعت في يوم جمعه وقد وهبته قدرًا لا بأس به من الدعوات إلا أنها لم تنجع أبدًا، ما الثمن الذي علينا دفعه ليفوز "فيدرر" على "نادال"؟

١٠٣-نحن العابرون على ضفاف الزمن، تقطعنا المسافات وتختزلنا الدروب في خطانا، تتساقط فيها أعمارنا حبة حبة.

نوافذنا مشرعة على النسيان ، بارعون في فن تجاوز الأشياء:

رائحة الزوج الأول الذي رحل عنها قبل الأوان،

ورود الحبيبة التي لم تحتمل المسير في دربه البعيد،

دم صديقه الذي لم يرحل عن قميصه الأبيض بعد..

ولا يبقى فينا سوى آثار لآثار!

نمضي ومهما ظننا أننا لن نمضي، ثمة حكاية لنا لابد أن تكتمل يوما ما، بخاتمة قد تكون ما أرادها القلب أو لا تكون..فقط ستكتمل!

١٠٤-والحنين ندبة في القلب، يقول درويش. ندبة، ولكن بلا أي رجاء في الشفاء..
قد نحنّ إلى مكان قد نبتت فيه بداية الحكاية، أو لزمان قديم حيث كانت الأبجدية تتعثر فوق الشفاه، أو لعابر بدربنا المهجور كان يشبه أرواحنا كثيرًا، عابر قد مر ولكنه لم يرحل، لم ينس القلب بعد طعم خطاه..

الحنين اغتيال ما كان لما هو آن؛ يجعل شمس الحاضر مطفأة العينين رغما عن كل الصباحات، بينما قد تكفي شمعة ذكرى واحدة لكي يتكلم القلب من الفرحة أو من الوجع..من الحنين!

١٠٥-يحتفل الفيسبوك هذه الأيام بعيد ميلاده العاشر، وبعيدًا عن الانخراط في حوار جاد حول مزايا وعيوب الكوكب الأزرق، لا بأس من ذكر بعض الأمور الطريفة المتعلقة بـ"مارك زوكربيرج:"

هل سألنا أنفسنا يوما ما عن سر سطوة اللون الأزرق على الفيسبوك؟

يكمن السر ببساطة في كون "مارك" عنده "عمى ألوان"، ومن ثم اختار للموقع لونا واحدا: الأزرق، الذي يراه بوضوح وارتياح..

بالرغم من ثراء "مارك" الفاحش إلا إن تهمة البخل تطارده باستماته، وأصحاب هذه التهمة يعتمدون على بعض الأمور أهمها :

اشترى "مارك" لزوجته خاتم زواج رخيص جدًا (ربما لأنها صينية!) في حين إنك واجد "جاي زي" مثلًا اشترى لـ"بيونسيه" خاتم الفرح من "شوارتز" بـ٥ مليون دولار! (هي كانت أصيلة في واقع الأمر ففي عيد ميلاده الأول بعد زواجهما اشترت له طائرة خاصة، هدية يعني بـ٤٠ مليون دولار(!

أيضا أصحاب هذه التهمة منشغلين بملابس "مارك" الرخيصة (بنشوفه غالبًا بـ"سويت شيرت" ما)! ولكن ثمة تفسير آخر لموضوع اللبس: يبدو إن "مارك" بخيل بوقته أكثر من بخله بماله الطائل، فهو منشغل تماما عن مظهره وقلما يتذكر أنه لم يغير لبسه من فترة طويلة! أيضا هو قليل الاهتمام بصورة ملفتة بالفيسبوك (أو تويتر)، ومن ثم يبدو أنه ويا للمفارقة أكثر من احتاط لنفسه من ضياع الوقت هنا، في كوكبه...فيما عملته يداه!

١٠٦–عن اللغة وهي تخوننا نحن المرضى بها، ثمة كلمات لا نقدر على قولها إلا بعد فوات الأوان.

عن القصيدة لا تنبت إلا بين هُدبيكِ!

عن الرسائل التي لم تُكتب بعد، تسقط دوما في طول المسافة بيننا!

عن قلبي يغتسل في بسمتكِ!

عن صوتكِ يبلل الليل الغارق ظمئًا بين كفيا!

١٠٧–يعلم المطلع على حال خاتم المثاليين الألمان، أعني الفيلسوف الكبير هيجل، أن نظرته لفاعلية الفلسفة في الواقع بما هي أداة لتنويره ولتثويره، قد تغيرت بدرجة حادة مع تقدمه في العمر؛ فبينما كان هيجل الشاب يرى أن الفلسفة تلعب الدور العظيم في تغيير الواقع وتصييره نحو الكمال، إذ بنا نجد هيجل الشيخ وبعدما خبر الحياة وزاولها يعدل عن أنظاره الشبابية تلك، ويرى أن الفلسفة لا نولي وجهنا شطرها إلا بعدما يسوء الواقع وينحط، آنها نهرب إليها لا بوصفها أداة لتغيير هذا الواقع وإعادة تأهيله، وإنما بوصفها العزاء الأخير لأرواحنا المنهكة. ومن هنا نفهم استعارة هيجل البليغة التي شبه فيها الفلسفة بـ"بومة منيرفا" التي "لا تبدأ في الطيران إلا عندما يرخي الليل علينا سدوله"؛ أي أن الفلسفة لا تأتي إلا متأخرة بعدما يزول نهار الواقع ويقبل علينا ليل انحطاطه، عندها تبزغ الفلسفة كنائحة على

رأس ميت، تخبرنا بأن ثمة روح عصر توشك أن تفارق جسده، وعلينا أن نتأهب لعصر جديد..

والحال، أننا لسنا بصدد تفصيل القول في هذا التخم الشاق من تخوم فكر هيجل، وإنما وفقط نتوسل بإطاره العام هذا في تفهيم الفكرة التالية:

نحن لا نكثر من الحديث عن مثال أو قيمة ما إلا عندما يغيب أو تغيب عن واقعنا، فعندما تجد رحى الكلام مثلًا دائرة حول قيمة العدل فاعلم أن الواقع منها براء. وعندما تجد شعارات الحرية مرفوعة فوق النجاد والوهاد، وقد كثر التنظير فيها والجدال حولها، فاعلم أن الواقع يشتكي من فقر حاد في الحرية.

ومن ثم فكثرة الكلام مثلًا عن الحرية وفلسفتها هو بمثابة "بومة منيرفا" التي تنوح على خراب واقعنا من هذه القيمة المشتهاة، فالأحرار لا يتكلمون عن الحرية..

أما بعد، فإن الحب كقيمة لا يشذ بحال عن هذا السياق؛ فعندما يكثر الكلام عنه فاعلم أن ذلك آية على الحرمان منه؛ فالمحب حقا وصدقا لا يتكلم عن الحب، الحب خُلق ليُعاش لا ليتُحدث عنه، وحدهم المحرومون منه يتكلمون كثيرا عنه، وأولئك الذين اتخذوا له عيدًا هم في الحقيقة غرباء عنه، من فرط هذه الغربة كادوا أن ينسوه، فجعلوا له يوما كي يذكرهم به!!

١٠٨-"طالما أنا رئيس للجنة امتحانات التخرج، فإن كل من يتحدث في ورقة امتحان عن هيجل فهو راسب لا محالة".

هذا ما يحكيه لنا جون بول سارتر عن أستاذه جيل لاشيليه. فما سر عداء هذا الأستاذ لهيجل؟

في واقع الأمر لم يكن لاشيليه وحده من يحمل هذا العداء، وأيضا لم يكن موجهًا لفيلسوف يينا وحده؛ فقد كانت الجامعة الفرنسية برمتها تعادي آنها ليس هيجل وفقط وإنما الفلسفة الألمانية قاطبة..

والحال، أن منبع هذه الكراهية لم يكن فلسفيًا فقط، وإنما قد كان ضمن حالة أوسع من العداء بين الأمتين الفرنسية والألمانية في ذلك الحين. لقد كان ثمة عقدة سيكولوجية فرنسية تجاه ألمانيا التي تمكنت من التوحد وحققت بعض الانتصارات.

ونحن لو تدبرنا واقع التفلسف الفرنسي سنجد أنه قد أصابته كبوة مرعبة بعد عهد فلاسفة الأنوار، عهد روسو وفولتير والموسوعين، لن يخرج منها إلا بعد ردح من الزمن خلاله ستكون الفلسفة انتقلت تماما لألمانيا، ليصير كل تفلسف ألمانيّا وإلا فلا!

من هنا قد جاءت الكراهية والغيرة الفرنسية من الفلسفة الألمانية، للدرجة التي تجعل من أكبر أساتذة الفلسفة في حينه أعني لاشيليه يحرم على طلابه ذكر اسم هيجل في ورقة امتحان ولو سهوًا!

ولكن ما مآل هذا الحصار المضروب على العقل الفلسفي الفرنسي حينئذ؟

سوف يهاجر جيل بأكمله إلى ألمانيا، بما يمكن اعتباره "هجرة فلسفية" ليتعلم هناك وليرجع حاملًا التفلسف الألماني إلى باريس. أسماء فلاسفة كبار هاجروا: سارتر، ريمون آرون، لوفيناس، موريس ميرلوبونتي، وموريس دي كوندياك..

راحوا ليتتلمذوا على يد هوسرل وهايدجر وكاسيرر وماكس فيبر. ولننصت إلى لوفيناس وهو يقول :

"لقد جذبني هيدجر تمامًا، لقد كان على المرء أن يحجز مقعدًا منذ الصباح الباكر ليتمكن من سماع درسه بعد الظهر!"

من يومها والتفلسف الفرنسي ينهض على الفلسفة الألمانية، لم يتوقف الأمر على هذا الجيل العائد وإنما امتد إلى الجيل الجديد، جيل فلاسفة الاختلاف: فوكو ودريدا وريكور..

إنه "مكر التاريخ" لو جاز لنا أن نستعير من هيجل نفسه، ذاك الذي كان ذكر اسمه جرم لا يُعاقب عليه بأقل من الرسوب، سوف يأتي زمان على فلسفته (والفلسفة الألمانية عامة) تطغى فيه على أفق التفلسف الفرنسي (والتفلسف بعامة) لدرجة ستدفع فوكو ليتساءل

خفية:

"ما الثمن الذي علينا دفعه لنتخلص من هيجل؟"

١٠٩-"إنني أحاول وبدقة أن أضع نفسي عند نقطة، بحيث لا أعرف بعدها إلى أين أنا ذاهب"!

)ج. دريدا(

ثمة نازع عنيف لدى جاكي للانفلات من سياج المعنى. محاولة استنفاذ كل الممكن العقلي ، ليصل إلى نقطة عماء يصعب عندها الحديث عن غاية أو مرام!

رب "اكتشاف" مذهل لبرنس ما في الجيش المصري مؤخرًا، يكشف لنا عن عمق قدرات مؤسستنا العسكرية على ممارسة التفكيك؛ انزياح تام عن خطاب العقل. تم سحق اللوجوس الطبي في عملية خاطفة لم تستغرق سوى دقائق معدودات احتاجها مؤتمر صحفي مثير.

ولتتم مراسم تأبينه بكل يأس وعلى نطاق واسع في ساحات القنوات الفضائية!

ما الذي كان يراهن عليه أولئك؟ الطمع في تخدير الشعب واستلابه مزيدًا. ربما!

لقد تم استنفاذ القدر الممكن من اللاعقلانية هذه المرة، بحيث صرنا على تخوم الجنون، لقد وصلنا إلى تلك النقطة التي تحدث عنها دريدا: صرنا لا نعرف إلى أين نحن ذاهبون!

١١٠-وعند نهاية الحكاية، وقف "أمل" على أعلى ربوة معنى، يخاطب الموت فيه: "فالجنوبي يا سيدي يشتهي أن يكون الذي لم يكنه".

لعلنا ننفق كل العمر نفتش عن أنفسنا بعيدًا عن أفق أنفسنا، غالبا لا تعجبنا روايتنا الخاصة، ثمة إحساس عنيف لدينا بأنها رواية ناقصة على الدوام، لم يفتنا أبدًا مطلعها، ولا نملك أن نختار لها الخواتيم !

تبهرنا دوما رواية أخرى، نرى فيها ذواتنا وقد ضلت الطريق إلينا، نظن أنها ووحدها ما يليق

بنا !

كلنا كالجنوبي نشتهي أن نكون الذي لم نكنه..

١١١-كتب الفيلسوف الأمريكي "جون راولز" (٢٠٠٢) نصه: "نظرية العدالة" في العام ١٩٧١، ثم أعاد نشره في نسخة منقحة في العام ١٩٩١، والحال، أن هذا الكتاب قد حظي بدرجة فخمة من الاهتمام المعرفي في أوروبا بعامة وفي الولايات المتحدة بخاصة؛ فحتى العام ٢٠١٣ كان الكتاب قد تمت الإحالة إليه في ٥٤ ألف عمل أكاديمي (بحسب إحصاء جوجل أكاديميا..(

ليس ذلك وفقط وإنما أنت واجد نص "راولز" هذا قد لفت أنظار أهم القامات الفلسفية المعاصرة، وأجبرهم على الدخول معه في حوار معرفي بالغ الثراء، لا أتحدث عن مواطنيه :الفيلسوف الليبرالي الأشهر "روبيرت نوزيك" وفيلسوف الأخلاق "مايكل ج. ساندل"، وإنما يتعلق الأمر بأسماء بحجم الفيلسوف الألماني وعالم الاجتماع "يورجن هابرماس" والذي يقول عن "راولز" -بفضل نصه هذا- إنه أهم فلاسفة السياسة في القرن العشرين، والكندي المرموق "شارلز تايلور"، والفرنسي "بول ريكور"، والإيطالي الذي أعاد بناء الماركسية من جديد " أنطونيو نيجري"، كلهم انخرطوا في نقاش أنيق للتفكير مع راولز ضد راولز، كل بحسب أفقه الفلسفي الذي ينطلق منه..

لم يكتب "راولز" كثير كتب، فقط ظل منخرطا في تفكير مستمر حول نظريته-هاجسه هذه في العدالة حتى نهاية المطاف.

ما دلالة ذلك؟ رب درس قد تعلمناه من الفيلسوف التونسي "فتحي المسكيني": ثمة فرق شاسع بين الكتابة والتحبير؛ فتحبير الصحف وتغذية المطابع بكم مهول من التصانيف التي لا تغني ولا تسمن من جوع شيء والكتابة شيء مختلف تماما، الكتابة بما هي ضرب من

المعاناة، فهي بمثابة انفتاح جرح ما، كما يقول "كافكا"، الكتابة كتعرية للروح بدرجة أو بأخرى، الكتابة بوصفها واقعة وتجربة من نمط فريد...

ما كان الشأن أبدًا في تسويد الصحائف بالمداد، لإنتاج هوامش فوق الهوامش لمتون لم نتقن نحن كعرب بعد فن صناعتها، وإنما الشأن في الكتابة البكر الأصيلة التي تنضح بروح صاحبها، هذه وهذه فقط تحدث حراكًا في أفقها الثقافي..

وبعد، فلعلنا في حاجة ملحة للانخراط جديًا في تجربة الكتابة والكف ولو قليلًا عن صناعة التحبير!

١١٢-"فأيّنا منا أنا لأكون آخرَها "..

يقول "درويش" ذات قصيد..

تيه تام النقصان بعيدا بعيدا عنك لتصل إليك..

فإذا كان الطريق إلى الذات يمرحتما عبر الآخر، كما تعلمنا مع "ريكور"، فإن الحب هو الطريق الملكية لهذا الوصول، يخبرنا "درويش"، أن تكون نصفا ليكملك النصف الآخر، دون أن تدري أي النصفين أنت ولا فرق، لا أنا هنا ولا آخر لها في اللا هناك..نحن لا نحب إلا من ينبئنا عن أنفسنا، عبرهم نعرف حقا من نكون..

عن ملح المسافة بين كل قلبين-نصفين..

عن القوافي التي لا تزهر إلا في ندى كفيكِ..

عن تلك الدروب المثقلة بالناقصين، من لم يتيهوا عن أنفسهم بعد، وضعوا معاطف الانتظار على أكتاف الحنين: إليهم..إلى الذي لا يجيء!

١١٣-من المعلوم أن الفيلسوف الألماني الكبير إ. كانط، كان قد كتب نصه "ما التنوير؟" ردا على سؤال قد طرحه قس ألماني في نهاية مقال له يدافع فيه عن تقليد الزواج الكنسي في

مواجهة الزواج المدني . نشر القس مقاله في "دورية برلين" الشهيرة آنها، ونشر كانط رده أيضا في نفس الصحيفة.

والحال، أن فيلسوفا آخر وهو موسى مندلسون كان قد رأى مقال القس آنف الذكر، فجهز ردًا على تساؤله عن الأنوار، والذي سينشره في نفس الصحيفة، قبلما يدخل كانط على الخط وينشر رده هو الآخر (نشرت النصوص الثلاثة تقريبا في شهر واحد من العام ١٧٨٦(ومهما يكن من أمر فإن كانط عندما كتب نصه دونما معرفة بأن مندلسون قد كفاه مؤنة الرد على القس، فأنت واجده في هذا النص الصغير (ترجمته العربية بهوامش المترجم د. إسماعيل المصدق حوالي ٣٥٠٠ كلمة) يكرر مرتين أنه عندما كتب رده هذا، لم يكن يعرف بأن مندلسون قد سبقه إلى الكتابة في نفس الموضوع، وأنه لو علم ذلك ما كان ليكتب هذا النص أبدا..

فانظر إلى صاحب الفلسفة النقدية، يعتذر على مجرد كتابته في موضوع كان قد سبقه آخر إليه!!

ثمة نازع عنيف في نفس كل فيلسوف، نازع يدفعه نحو الأصالة، يحثه على أن يجعل من نصوصه عملة جديدة لم يُسبق سكها أو تداولها بين العقول..

نازع جعل كانط يعتذر مرتين لكونه كتب فيما كتبه غيره يوما ما!

١١٤–ثمة مفهوم طريف عند نيتشه، هو "القراءة المشخِصة للأعراض"، فما دلالة هذا المفهوم في المتن النيتشوي؟

إجالة النظر في نصوص نيتشه تكشف لنا عن رغبة ابيستيمولوجية عنيفة لديه، رغبة في الربط بين المنتج الفكري لكل فيلسوف وحالته الصحية: النفسية في المقام الأول ثم الجسدية؛ إذ يكاد نيتشه يجعل من أفكار فيلسوف ما، محض انعكاس لحالته النفسية والجسدية. ولسان حاله مع هذا الفيلسوف أو ذاك: قل لي أفكارك، أقل لك ما هي حقيقة حالتك الصحية.

إنها مقاربة إيكلينيكية (سيكولوجية وفيسيولوجية) انتهجها نيتشه في سعيه لبناء جينالوجيا الأفكار، ضمن عدة مقاربات أخرى: تاريخية وفيلولوجية..

وفي هذا السياق يأتي هذا المفهوم، الدال على نمط من أنماط قراءة النصوص، إنها قراءة نشطة تروم الكشف عن حالة صاحب النص النفسية التي حايثت انتاجه لنصه هذا. بحيث لا يكون القارئ هنا مجرد متلقي سلبي أمام النص، وإنما يرتدي معطف الطبيب ويمارس ضرب من ضروب الطب، بغرض تأويل النص.

والحال، أن منهجية نيتشه هذه في قراءة النصوص، تقع ضمن قائمة المناهج التي تبحث عن دلالة النص في فناء النص أي خارجة، جنبا إلى جنب مع المناهج الاجتماعية والماركسية والتاريخية. هذه القائمة التي سيطيح بها المنهج البنيوي الباحث عن دلالة النص حصرا داخل النص. ثم ليأتي التفكيك ويضرب بالجميع عرض الحائط رافعا شعار: لا شيء خارج النص...ولا شيء أيضا داخله!

على أية حال، فقد تعلمنا مع غاستون باشلار، أن المنهج كخيط من الضوء، بقدر ما يكشف لنا عن منطقة داخل النص بقدر ما يحجب عنا ظله منطقة أخرى. أي أنه ليس ثمة منهج واحد كفيل بإنجاز قراءة تمسك دلالة النص من تلابيبها..

ما أود الإشارة إليه: أننا راهنًا نحتاج بدرجة أو بأخرى إلى اعتبار قراءة نيتشه المشخصة للأعراض، من أجل فهم الخطابات والأفكار المتداولة، إذ أنها خطابات تنبئنا أكثر ما تنبئنا عن أحوالنا النفسية!..

١١٥-رب سؤال اتسم بقدر عنيف من الجذرية والبداهة في آن، من فرط بداهته لا نكاد نخصص له من برنامج عقلنا حيزا للتفكير الجاد: ماذا نريد؟ أو هل يدري كل منا حقا ماذا يريد؟

في واقع الأمر، إن هذا السؤال مشدودة أواصره كلية لدرجة وعينا بذواتنا؛ فكلما وعى المرء ذاته كلما كان مقتدرا على الإفصاح عن مراده بدقة أمام نفسه والآخرين. ومن ثم جاز لنا أن نصيغ السؤال بالصورة التالية: هل نعي حقا ذواتنا؟

الحديث عن الوعي بالذات سيأخذ بأيدينا حتما لجدل الحداثة–ما بعد الحداثة؛ فبينما الأولى تنهض كلية على براديغم الذات، أي أنها تؤمن بأن ثمة ذات واعية بنفسها، عاقلة ومريدة وقادرة على تحقيق ما تريد. إذ بالثانية تذيع الخبر: لقد ماتت الذات! أو بالأحرى لم يكن ثمة ذات أصلا؛

فما كان يسمى ذاتا بحسب م. فوكو ليس سوى اختراع حديث للغرب الإمبريالي المفتون بنفسه، يوشك أن يزول كبيب من الرمل بناه الصغار على الشاطئ، لتأتي موجة غاضبة تمحوه كأنه لم يكن!

أو هي بحسب ج. بودريارد مجرد "دال"/كلمة يسبح بلا بصيرة مع باقي الدوال التي أنتجها "الواقع المفرط" (يقصد بودريارد بهذا المفهوم، أن الواقع المعيش هذا ليس سوى منتج إعلامي خالص. يبدأ الأمر بمحاكاة الإعلام للواقع ثم يتصادم كل من الواقع الأصلي مع هذه المحاكاة، يسمي بودريارد هذا التصادم: انفجار الواقع، والذي سينتج عنه واقع جديد تماما مخلق إعلاميا سماه الواقع المفرط أو ما فوق الواقع. وفي هذا السياق أتى حديثه عن حرب الخليج الثانية التي يراها لم تقع(!

والسؤال الذي يجابهنا: هل نحن ذوات حديثة واعية بنفسها وتعلم حقا ما تريد، أما أننا ذوات مابعد حديثة لا ندري ما نريد، فقط نظن أننا ندري ما نريد؟ هل ما نقول أننا نريده حقا، هو إرادتنا المحضة، أم مجرد حاجات فرضت علينا أولا فتوهمنا أننا نريدها، هل هي حقا حاجات تعبر عن ذواتنا الخاصة؟

إن نظرة في وجوه العابرين المثقلة بانتظار ما يتأخر على الدوام، تلك العالقة في زحام لا يرحل أبدا عن دروبنا، يغيب عنها السؤال ويملئها اللامعنى، تكفي لنتشكك في كوننا ندري ما

نريده حقا في هذه الحياة..ربما قد تاهت منا ذواتنا ورحنا ننفق أعمارنا في البحث عنها في أماكن لا يمكن لها أن تكون فيها!

١١٦-تفوح من فوق جدائلها ريح اللغة المنسية
تتكسر الأبجدية فوق خريطتها موجة موجة
يعانق الإسم المسمى على حافة الشِعر المتدلي من راحتيها
والمعنى مطعون ببرد المسافة ما بين قلبينا..
مسافر مني إلي، تسبقني خطاي
ترتاح الشمس غيمة فوق نبضي المثقل بالحنين
النهار يباب، يملئه الغياب
والليل خيمتي، يظللني إيقاعه الحزين
أبيتُ في شرفته أراقب بعناية نجمة هاربة من سماء بعيدة
وأحلم بصباح يطل على البحر والحُب..وعينيكِ.

١١٧-(1)
"من دمر ممتلكاتي أعاد ترتيب إدراكي".
(chuck palahniuk: fight club)
هذا هو درس بولانيك لنا، في عمله الرشيق "نادي القتال" (١٩٩٦): ملكك للأشياء يصيغ نمط إدراكك للوجود؛ رؤية من "يملك" للعالم ليست أبدًا كرؤية من لا يملك..
(2)
كان عالم النفس الشهير إيرك فروم يفرق تفريقا طريفا قد يبدو مستهجنا بادئ الرأي بين التملك والكينونة، إذ يرى فروم أن ثمة تضاد جذري بين أن تملك وبين أن تكون. فبينما نحن

في عالم يشرط الكينونة بالتملك؛ فأنت معترف بك على قدر ما تملك، وتشعر بذاتك ووجودك بقدر ما تملك. إذ بفروم ينقض هذه الوئام بين التملك والكينونة وينصب مكانه عداءً أبديا..

يرصد فروم هذا الوضع وهو القادم من أفق ماركسي أصيل، من خلال الاستعمال اللغوي؛ إذ يلحظ أن معدل استخدام الأفعال في خطابنا قد انخفض لصالح زيادة في استخدام الأسماء، مثلًا: يكثر استخدام: لدي فكرة، لدي رغبة، لدي إرادة، بدلا عن: أفكر، أرغب، أريد. الصيغة الأولى تعبر أكثر عن التملك بينما الثانية تعبر أكثر عن الكينونة.

والحال، أن فروم هنا يضعنا أمام نمطين للوجود علينا أن نختار بينهما: إما أن نملك لنكون عبيدًا لما نملك. أو نكون وفقط، أي نكون أحرارً..

(3)

درويش في نفس السياق يتفاخر بحكمته: حكمة المحكوم بالإعدام:

"لا أشياء أملكها فتملكني!"

هكذا قد قال في "لا تعتذر عما فعلت"

(4)

أهل السلوك قد حسموا أمرهم مبكرا :

الهروي في منازل السائرين عندما أراد أن يضع حدا لمنزلة الفقر لله والتي تعني كل الغنى في واقع الأمر قال :

"هو البراءة من رؤية الملكة"

أي أن شرط الغنى/الوجود الحق هو التخلص التام من فكرة أنك تملك..

١١٨-أن نعود، هذا ما نفعله على الدوام. ثمة ما تركناه خلفنا ولكننا لم نتجاوزه بعد. مطاردون نحن بما كان حد اللعنة. من أجل ذلك يمرن القلب نفسه على الحنين. ثمة معنى ما رابض في ماضي أنفسنا، لا يزيدنا الزمن إلا ظمأ إليه..

أو ألا نعود، هذا ما قد نهتم به. رب جرح لا يزال يخترق أروحنا المنهكة، نفر منه ولا نفر، لا مكان إذن قادر أن يخفينا عن عينيه..

هايدجر كان يوصينا: "علينا أن نعود"، نعود إلى التفكير في الكينونة التي نسيناها، ولكن بحسبه "لا يعود إلا من سمع النداء". من منا سمع النداء؟

حياتنا مرهونة بالعودة؛ نريد أن نعود، أو نريد ألا نعود، يجب أن نعود لشيء ما، أو لا يجب أن نعود لغيره..نسافر لنعود، ونخاصم لنعود، حتى الدنيا ليست سوى رحلة عودة..إلى العدم!!

١١٩-ثمة فارق جذري بين أن ينظر المرء إلى نفسه بوصفه مجرد باحث عن المعنى في كل أفق ممكن له، وبين أن يقدم خطابًا يعترف لنا بإخلاص بأن صاحبه يعتبر نفسه آلة ضخمة لإنتاج المعنى بله الحقيقة. نعاني من ندرة مخيفة في ذاك النمط من الذوات الذي يريد أن يظل تلميذًا للأبد. مجرد مفتش محترف عن المعاني كيفما اتفق. بينما كواهلنا مثقلة بأولئك الراغبين في تسنم عرش الأستاذية مبكرًا، ثمة من يرتدي في عجلة من أمره جبة المنظر لا التلميذ، منتج المعاني لا الباحث عنها. يظهر لنا هذا النمط في نسخ كثيرة: الشيخ- المثقف- الثائر - الأديب....

كم يزيد المرء أناقة أن يتسم بـ"التواضع المعرفي". فبينما نيتشه يتحسر: "من النادر أن يكون المرء شخصًا" مجرد شخص. وبينما إ. إيكو من بعده لا يرى في نفسه أكثر من "روائي ناشئ"! إذ بأفقنا يضيق بأولئك المصابين بضرب من "النرجسية المعرفية"، منتجي المعاني وصناع الحقيقة قبل الأوان!

١٢٠-لماذا لا نتصور سعادتنا إلا ضمن برامج ضخمة ومشاريع للحياة تثقل أرواحنا الهشة؟ لماذا نصر دوما على أنها تسكن فقط فيما لا نملكه، في أحلامنا التي نطاردها بلا رجاء؟ هذه البرامج والمشاريع ليست سوى خطط محكمة لخسارة بهجتنا على هذه الأرض. وحدها الأشياء البسيطة المهملة في زوايا الحياة قادرة على وهبنا البهجة: قبلة من فم طفل لم تفسده بعد الحياة، التسكع مع صديق على حافة الليل ونيل القاهرة، رؤية الشمس تبتسم أول الصباح بعدما تسللت بخفة من أمام حارس الليل المتعب من السهر وسماع أحاديث المحبين، مذاق الياسمين، صوت "ناي يتحدث إلى وتر خائف في الكمان"، صفحات كتاب يقول صاحبه ما تود لو قلته أنت، الجلوس وحيدا بين يدي الذاكرة....

هذه هي أبسط الأشياء التي كان هايدجر يدعونا أن نتكلم عنها بأبسط الكلام. تلك التي نزيغ عنها وننسها وننسى أننا ننساها!

١٢١-ها هو ك. ترانتينو محبط تماما، بسبب تسريب سيناريو عمله القادم "البغضاء الثمانية" قبل الأوان. والحال، أن هذا النص قد وضعه ترانتينو ليكون جزءا ثانيا لعمله الأخير "جانجوا حرا" (٢٠١٢) والذي نال عليه أوسكار أحسن سيناريو. ومعلوم أن مبدع "kill bill" و "pulp fiction"يُضمن عبقريته في المقام الأول في نصوص أفلامه التي يكتبها. وهذا النص الأخير عبارة عن حوار كثيف في حجرة تجمع شخوص عمله طوال الفيلم تقريبا.

على أية حال، فإن ترانتينو سوف يُدخل تعديلات جذرية على السيناريو وسيكمل تحقيقه ليُعرض في ٢٠١٥.

في واقع الأمر، قد ذكرتني واقعة ترانتينو هذه، بحديثي الدائم مع رفاقي عن حرص ك. نولان في هذا السياق، والذي لم يعد يبدو لي مبالغا فيه بعد ما جرى مع ترانتينو؛ فنولان تحكي لنا ماريون كوتيلارد، يسافر بنفسه لكل ممثل ليعطيه السيناريو بيده، ثم لا يسمح له بالاحتفاظ

به إلا بعد أن يوافق على الدخول في ورشته..

كذلك يحكي لنا هانز زيمر موسيقار نولان المفضل وكله عجب، أن نولان عندما جاءه يطلب منه تأليف موسيقى عمله القادم "interstellar" لم يطلعه حتى على النص وإنما أعطاه ورقة واحدة فيها ملخص لفكرة العمل فقط !

ونولان أيضا هو الذي كتب سيناريو تحفته "inception "على مدار تسعة أعوام في نسخة مشفرة ليس بمكنة أحد سواه أن يفهمها، حتى جاء موعد تحقيق الفيلم فكتب النص ثانية بلغة عادية!

ليس أشد على المرء من سرقة أفكاره، لأنها سرقة من الروح لا من الجسد!

١٢٢-قد تكون علاقتنا بذواتنا أعقد مما تبدو عليه؛ فمن نحن على وجه الدقة: هل ما كنا عليه حين من الدهر أم ما نحن عليه بالفعل أم ما نريد أن نكون عليه يوما ما؟

كيف ينظر المرء إلى ذاته القديمة وما مدى حميمية العلاقة بينهما؟ يناصبها قدر فظيع من العداء، هو يعرف نفسه بوصفه من لم يعد على ما كان عليه، الحياة بوصفها سعي حثيث للتخلص من كل آثار الذات القديمة، هو يود أن لو استطاع محوها تماما ومن ثمة يبدأ من نقطة الصفر. هل على المرء أن يكره ما كان عليه؟ ليس من الوفاء في شيء أن يسعى المرء لإزاحة ذاته القديمة من طريقه، مهما كان حكمه عليها بائسا. بل عليه أن يكافح لتذكرها وأن يكون أكثر حميمية معها. قل لي كيف تعامل ذاتك القديمة أقل لك من أنت .

ما نود أن نكون عليه هو أمر نعامله بلطف سخي، الحياة بوصفها انتظار مطلق لما سيجيء. يتم التطويح بالذات هنا في مهب العطالة، هي إذن ذات مؤجلة حتى حين .

ما نحن فعلا عليه ممزق بين محاولات التخلص من ذواتنا القديمة واستجداء ذواتنا المنتظرة. وعلى قدر ما يحقق المرء الصلح بينهما بقدر ما يحقق توازنه في هذه الحياة. أن يتلطف مزيدا بما كان عليه حين من الدهر وأن لا يراهن بعنف على ما ينتظره أن يكون يوما ما.

١٢٣- -منذ متى والموج يصفع خد صخور الشاطئ، ولم تغضب بعد؟ ماذا لو قررت الإنتقام؟

-هل لو نظرت الوردة في المرآة ستصاب بالغرور؟

-لماذا لا تستيقظ معنا أحلامنا؟

-تلك التي كان "درويش" ينتظرها بكوب الشراب المرصع باللازورد، ما لون عينيها؟

-كان يمكن لهذا المساء أن يكون جميلا، لو أن قهوته تعطرت بندى كفيكِ!

-كم يحب الناي الكمان؟

-هل تستأذن السماء الأرض قبل أن تمطر؟

١٢٤-ثمة أسطورة يونانية طريفة، تحكي عن قاطع طريق يُدعى "بروكست". والحقيقة أن "بروكست" هذا لم يكن مجرد قاطع طريق لا يروم سوى نهب متاع المسافرين، وإنما قد كان شخصًا "ساديًّا" يهوى تعذيب كل من ألقت به الطرق بين يديه. كان "بروكست" يقنع كل مسافر أنه سيستضيفه ويكرمه، وما إن يصدّقه صاحب الحظ العاثر ويدخل بيته، حتى يقوم "بروكست" بممارسة نمطًا غريبًا من التعذيب عليه:

كان في بيت "بروكست" سريرين (أو سرير واحد لا يلائم أي جسد بحسب رواية المؤرخ "بلوتارك")، أحدهما طويل أكثر مما يجب، والآخر قصير أكثر مما يجب. فإذا كان الضيف-الفريسة طويل القامة، يقوم "بروكست" بوضعه على السرير القصير جدًا، ثم يقطّع أطرافه حتى لا يبقى من جسده إلا ما يساوي مقاس السرير تمامًا. وأما إن كان من قصار القامة، فإنه يمدده على السرير الطويل، ثم يقوم بتمطيط جسده حتى يساوي مقاس السرير تمامًا أيضًا.

كثرت جرائم "بروكست" حتى ساقت الأقدار إليه ضيفًا ولكنه من طراز فريد هذه المرة: البطل الأثيني "تيسي"، ففعل ب"بروكست" ما كان يفعله مع ضيوفه؛ فوضعه على سريره وقطّع منه ومطط حتى إستوى مع مقاس السرير!

هذه إذن حياة "بروكست" وها هي خاتمته، والحال، أنه وبالرغم من كون هذا المحكي مجرد أسطورة أنتجها المخيال اليوناني، فإنك لو أجلت النظر في طبيعة السجالات الفكرية هنا، ستجد أنها تتضمن بدرجة ما "ماصدق" لهذه الحكاية-الأسطورة؛

إذ تجد كل منا يجعل من أفكاره سرير "بروكست" ويجعل من الآخرين ضيوفًا عليه، فيضع أفكارهم على سرير أفكاره، فإذا تساوت أفكارهم مع مقاس فكره-سريره، نالوا منه كل الرضا، وصاروا في نظره هم أهل الفهم والنظر بحق. أما لو لم يسعفهم الحظ وطالت أفكارهم أو قصرت عن مقاس فكره-سريره، سعى جاهدًا لتقطيع أو تمطيط أفكارهم هذه حتى تستوي تماما مع هذا المقاس، وإلا طردهم من جنة المعرفة والفهم رأسًا وصاروا في نظره محترفي لإساءة فهمه، وعدم الوعي بما يكتب أو يقول!

لماذا لا نترك لبعضنا هوامش نمارس فيها فعل الاختلاف الحر الأنيق؟ لمَ التعجل في نفي الآخر من أرض الفهم حال اختلافه معنا؟ لمَ المسارعة في إصدار الأحكام القيمية والنهائية على كل مختلف؟

أحيانًا تجد أن أكثر من ينظّرون لهدم الأيديولوجيات، وتجاوز كل الثنائيات، غارقون في هوة أيديولوجية ما لها من قرار، و يزدحم فجأة خطابهم بكل الثنائيات التي لا يملّون من الدعوة إلى تجاوزها آناء الليل وأطراف النهار! فقط يبين ذلك حال الاختلاف؛ الاختلاف يُظهر الأشخاص على ما هم عليه حقا.

ورب درس نتعلمه من الاشتغال بالفلسفة، إنه التمرن الشاق على الاختلاف: من المعلوم أن "الجمعية الفلسفية الفرنسية" هي معقل الفكر الفلسفي المحافظ في فرنسا، والحارس الأمين لأفكار الأنوار والحداثة، يومًا ما وجهت الجمعية دعوة ل"فوكو" كي يلقي محاضرة فيها، وقد

كانت هذه الدعوة غريبة وملفتة للنظر؛ إذ كيف تدعوه وهو "المابعدحداثي" الذي ما كف عن نقد تلك القيم التي تتبناها الجمعية؟! لننظر في ما فعله "فوكو": لقد قبل الدعوة بالفعل و لكنه ألقى محاضرة شهيرة قد وسمها ب"ما المؤلف؟" تضمنت نقدًا جذريًا لكل الأسس الفلسفية التي ترعاها الجمعية وتقوم عليها! ومر الأمر ببساطة دون أن يُقاطع "فوكو" أو يُهاجم! إنها ثقافة الاختلاف التي حثت الجمعية لدعوة "فوكو" ابتداءً، ثم شجعت الأخير ليقول ما قاله!

أما بعد، فلنتواضع قليلًا، ولنتخذ من حال "بروكست" عبرة لنا؛ فكل دوغمائي مستعد لإعلان نهاية الفلسفة والتاريخ ولو في مجرد منشور عابر، ولا يرضى إلا أن يكون الآخرين على مقاس فكره، فثمة من هو أكثر منه دوغمائية،سيقع بين يديه يوما ما، ليفعل فيه كما فعل "تيسي" بـ"بروكست!"

١٢٥-لفت نظري هنا مؤخرًا ظاهرة تستحق الاعتبار، وهي تتعلق بفعل الـ:"like"

ما أفهمه عامة، أنه عندما أضع "like" على منشور ما (أتحدث عن منشورات الرأي، التي تتضمن موقفًا محددًا من قضية بعينها فكرية أو سياسية أو اجتماعية...إلخ)، فهذا يعني ضمن ما يعني أنني أوافق صاحب المنشور في رأيه هذا. أما لو كنت غير موافق فبمكنتي أن أعبر عن موقفي كالآتي: إما أهمل المنشور تمامًا (في ظل غياب علامة .("dislike" أو أعلق على المنشور موضحًا موقفي منه.

ولكن ما لفت نظري هو أنك واجد البعض يضع "like" على منشور يتناول قضية معينة، ثم يضعه أيضًا على منشور آخر يتناول نفس القضية، ولكنه يتضمن موقفًا لا أقول يخالف الموقف الذي يتضمنه المنشور الأول وإنما يضادّه تماما!

كيف ليّ أن أفهم هذا السلوك؟

ربما يكون السبب هو سوء الفهم؛ إذ يظن الشخص أنه ليس ثمة تعارض بين المنشورين، وأن

كليهما يتضمن نفس الدلالة.

ولكن وكما أسلفت أحيانا يكون التعارض جذري بين المنشورين، بحيث يكون التنافر بين دلالتيهما أظهر من أن يخفى على القارئ، ومن ثم لا يصلح سوء الفهم في هذه الحالة كعامل مفسر (وحالة التضاد هذه وحدها ما يلفت النظر في واقع الأمر)، فما العمل إذن؟

صراحة، هذه ملاحظة عابرة والأمر يحتاج إلى استقراء معمق لهذا الظاهرة كي نتفهمها.

ولكن لا بأس من النص على هذه الفرضيات الأولية:

أولا: ثمة ضرب من الاستخفاف بفعل الـ"like"، في حين أنه يحمل دلالات مهمة؛ إذ يوحي لصاحب المنشور أنك توافقه، ومن ثمة يزداد ثقة في رأيه، وتقل احتمالية مراجعته له، كذلك سيعلم من يتابعك أنك توافق على هذا الكلام، ومن ثمة تزداد ثقته هو الآخر في هذا الرأي، وأيضا تقل فرصة مراجعته له.

ثانيا: يبدو أن ثمة شريحة كبيرة من الأشخاص تتابع عددًا محددًا من الكتّاب، تنظر هذه الشريحة إليهم بوصفهم منتمين لأفق فكري واحد، ومن ثم تتعامل معهم على أساس أن كل ما يكتبون يصب في نفس المجرى، دون الإنتباه لكثير من الإختلافات المتحققة بين هؤلاء الكتاب في مستوى النظر ومستوى العمل، حتى لو جمعهم نفس الأفق الفكري.

ثالثا: في الغالب يكون فعل الـ "like"متوجها للأشخاص كأعيان لا إلى ما يكتبون (لأنه شخصية مشهورة وله الكثير من المعجبين. أو لإنه صديق لي وأنا أتفق عامة مع أفكاره. أو من باب المجاملة.... وغيرها من حيثيات ليس هذا سياق تفصيلها(

رابعا: مع الوقت يتحول فعل الـ "like"مع البعض إلى فعل تلقائي لا وعي؛ بحيث أضعه بمجرد رؤيتي لمنشور شخص ما (مشهور في الغالب واعتدت متابعته)، بغض النظر عن التدقيق في مضامين هذا المنشور.

والحال، أن مظنة وجود هذه الظاهرة والتي تشي بالتناقض والتفكيك، هي القضايا التي لم تبلور عنها الأذهان وعيًا ناجزًا بعد، ورب قضية كقضية موقف الإسلاميين من الانفتاح على الفكر الفلسفي، نجد فيها مثالًا جليًا على ذلك:

فلما كانت شريحة كبيرة هنا قد وجدت نفسها فجأة أمام منشورات ذات حمولة فلسفية ثقيلة، تدهشها حينا وتستشكلها أحيانا، وهي لم تبلور هذا الوعي الناجز عن سؤال الفلسفة بعامة، كان من اليسير أن نشهد منهم هذه الممارسة التناقضية؛

فمثلا؛ تجد شخصا معجبا بمنشور يجعل من الفلسفة شرًا مستطيرًا، وأنها منبع كل الإنحرافات النظرية والعملية، ثم تجد نفس الشخص يبدي إعجابه طوال الوقت بمنشورات كلها ذات طابع فلسفي! (وأحيانا يكتب هو نفسه منشورات فيها من الفلسفة(!

وعليه، فعدم بلورة هذا الوعي، أزعم أنه مع جملة الفرضيات المذكورة آنفا، هو ما يفسر هذا النمط المتناقض من الممارسة، ولو تفسيرًا حزئيًا.

أما بعد، فالقراءة بمثابة سعي بأقدام حافية في عقول الآخرين، سعي يحتاج أن يكون المرء أقل استعجالًا وأكثر حذرًا من الشراك التي حتمًا ستقابل وعيه في الطريق!

١٢٦-(1)

لا شيء هنا يفوق الكلام حضورًا؛ ثمة نازع لحوح تضيق به أنفسنا لوهب كل ما يحدث تعليقًا ما من لدنا، مدمنون نحن على إنتاج

الهوامش، أي هوامش لأي أحداث!

(2)

هل وجدنا هنا فرصة أخيرة لل"تذوتّ" بتعبير "فوكو"، أي فرصة للعثور على ذواتنا التي سقطت منا سهوًا في دروب الحياة، وإعادة ترميم جدرانها المنهكة؟

(3)

لعله قد آن الأوان، لنطيح بالكوجيتو الديكارتي: أنا أفكر..أنا موجود، ولننصّب مكانه صيغة أكثر تعبيرية عن أنفسنا الراهنة: أنا أتكلم..أنا موجود!

(4)

هل نحن حقا مجرد "عابرون في كلام عابر"، كما قال "درويش" ذات قصيد؟

(5)

"أعرف من يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة"! (الفُضيل(

(6)

هل لو صمتنا قليلًا سينمو الياسمين بوتيرة أسرع؟

(7)

"تتكلم ساكتة، وأرد عليها بسكوتي، صمت ضائع كالعبث ولكن له في القلبين أثر كلام طويل"! (الرافعي(

(8)

"من عرف صمت"! (محمد أسد(

١٢٧-"كل محاولة لإنقاذ المعنى، ستبدو عقيمة تمامًا لو تمت بدون الرب!"
)هوركهايمر(

١٢٨-والمرأة هي المرأة، مهما كانت وأينما كانت؛ ثمة صفات لا يجوز لها أن تتخلى عنها بحال، وإلا لم تعد في كامل حسنها الخاص بها:

-من المعلوم أن "حنه أرندت" كانت تحب شيخها فيلسوف المعتكف "مارتن هيدجر"، ولكن علاقتهما الحميمة لم تمتد إلا لشهر واحدٍ، بعده تركت الدراسة على يديه، وانصرفت للدراسة عند "هوسرل" و"كارل ياسبرز" الذي أشرف على رسالتها للدكتوراه. ولكن ما

السبب؟ ببساطة، لقد اشترطت "حنه" على "هيدجر" لكي تستمر علاقتهما أن يترك زوجته، ولكنه رفض ذلك تمامًا!

ليس ثمة امرأة لا تغار. والحب تصحبه دوما رغبة في التملك التام...

-ذكر "ماركس" ذات مرة في خطاب لرفيقه "إنجلز"، أن أمه كانت تقول دومًا: "لو كان كارل صنع رأسمالًا بدلًا من أن يكتب عنه"!..

هي الأم التي يعنيها في المقام الأول راحة ابنها وغناه، لم تعبأ هي كثيرًا بالمادية التاريخية ولا بثورة البروليتاريا المنتظرة!

١٢٩-(1)

لماذا صار اللون الأحمر- لون الدم - هو لون العالم المفضل؟

ماذا لو قرر الورد الاحتجاج، وطالب بتغيير لونه؟ !

(2)

هذه السنة التي رحلت عنا - أو رحلنا عنها - مؤخرًا، تؤكد أن "كازنتزاكي" لم يكن يتهكم عندما قال: " إن هذه الحياة العاهرة لا تضن أبدًا بالمفاجآت!"

(3)

الآن تيقنا أن "دنقل" لم يكن يستخدم المجاز عندما قال عن العسكر: "هذه الذرية اللعينة!"

(4)

تلك العجوز على ربوة الثمانين، ألم تشعر الرصاصة بوخز الضمير حين قتلتها؟

(5)

أين تتسكع النجوم من الصبح إلى الليل؟

(6)

"ترى الدولة دوما جهنم في الأرض، لأننا أردناها دوما جنة السماء"! (هولدرلين(

(7)

"وحده إله يمكنه أن ينقذنا" (هيدجر(

١٣٠- "كلما ازداد غلط الإنسان في الحياة، زاد ميله لإعطاء الدروس للآخرين!")جيل دولوز(

١٣١-بين الحب والذاكرة علاقة مريبة؛ أن نحب يعني أن نعطي عهدا بالتذكر. عندما نريد إظهار حبنا لشخص ما نؤكد له مرارا على أننا لا ننساه، وعندما نود أن نطمئنه وهو يرحل عنا، نؤكد له أيضا على أننا لن ننساه (قلت لها: سأفقد الذاكرة ولن أنساك..سأحدث المجانين عنك -درويش(
ولكن أليس من الخطير أن يكون مصير الحب موكول بالذاكرة؟ عندما يؤكد لنا شخص أنه لن ينسانا أبدا، ما الذي يضمن أنه لن ينسى بالفعل؟ لا شيء للأسف يمكن أن نراهن عليه، كل ما في ذاكرتنا هو هدف محتمل للص النسيان. علينا إذن أن نقبل هذا التصريح (دونما تشكيك في نية صاحبه) بقدر من التحفظ، فلا أحد يملك من أمر ذاكرته شيئا. مقدار حبنا لشخص ما تحدده المساحة التي يشغلها من ذاكرتنا، والذاكرة ضرب من الحضور، الموتى مثلا غائبون على الدوام، لذا تنحسر المساحة المخصصة لهم من ذاكرتنا مع الوقت، وبالتالي يبهت حبنا لهم بالتبع مهما ادعينا غير ذلك..

١٣٢-يفرق كونديرا بمكر بين كلمتين لطالما كانت بينهما أخوة لغوية متينة: الطريق والدرب؛ فالطريق بحسبه ليس سوى خط يصل بين نقطتين، مجرد مسافة نقطعها لنصل من النقطة الأولى للنقطة الثانية. الطريق هنا بوصفه وسيلة، تنحصر قيمته في كونه ينقلنا إلى مكان ما. نحن لا نهب الطريق بما هو كذلك أي اهتمام، بل ننظر إليه كعقبة ينبغي أن نقطعها بسرعة

لنصل إلى حيث نريد. بينما الدرب غاية في حد ذاته، لا نقصد بالسير فيه الوصول لنقطة معينة، وإنما هو مكان للتنزه، نحن لا نريد للدرب أن ينقضي، لا يهمنا من أين يبدأ وإلى أين ينتهي، وإنما نهب كل جزء منه اهتمامنا الخاص، فيه نتمشى ونتسكع ببطء، فلا معنى للنزهة إذا هي تمت على عجل. نحن نسافر (بسرعة) عبر الطرق بينما نتنزه (ببطء) عبر الدروب.

بخفة ينقل كونديرا هذا الفرق من المساحة الجغرافية الضيقة إلى مساحة الحياة برمتها؛ إنه يجعل من الطريق والدرب نمطين ممكنين للعيش؛ يمكننا أن نعيش الحياة كطريق، عقبة ينبغي تجاوزها للوصول إلى نقطة ما على خريطة العمر. الحياة بوصفها رتب يترقى فيها المرء (من طالب لإستاذ، من ضابط لعقيد، من أعزب لمتزوج، من متزوج لأب، وهكذا). كل مرحلة من هذه المراحل بمثابة عقبة نتوق لتجاوزها بأسرع صورة ممكنة للوصول إلى المرحلة التي تليها. الحياة إذن بوصفها طريق طويل وممل علينا أن نقطعه بسرعة قصوى. من هنا كان البطء مؤلم وغير محتمل بالنسبة لمن يعيش وفق هذا النمط، يضيق ذرعا بكل مرحلة إذا طالت ولو قليلا، تماما كما يضيق بطريق مزدحم يضطر فيه للسير ببطء.

كذلك يمكننا أن نعيش الحياة كدرب؛ الحياة بوصفها نزهة، كل جزء فيها يأخذ حظه من اهتمامنا، لا يعنينا متى بدأ أو متى سينتهي. فليس ثمة رتب هنا ينبغي أن نقطع عقبة الحياة لنصل إليها تباعا. (إن من يتنزه لا يعجل). العيش وفق هذا النمط يتيح لنا الفرصة لنهتم بالتفاصيل، التي لا يمكن أن يلتفت إليها من يقطع حياته كطريق. خريطة العمر هنا مسطحة تماما بتعبير دولوز، ليس فيها نقاط متفاوتة الرتب علينا أن نقضي عمرنا في القفزبحماس فيما بينها. الحياة وفق هذا النمط ترقى لدرجة الفن، فن عيش الحياة كدرب لا كطريق!

١٣٣-اللحظة التي يتم فيها تدشين الشخص ككاتب هي بدرجة أو بأخرى لحظة بائسة؛ إنها اللحظة التي يتحول فيها من شخص ما إلى مفهوم. لا يكمن الخطر في أن يتم التعامل معه ككاتب، ولكن في أن يصدق هو ذلك. أن يضحى لا يرى نفسه مجردة، وإنما يراها

بملحق جماهيري فخم. آنها يبدو الأمر ويكأن ثمة صفقة صامتة ومريبة بينه وبين هذا الجمهور المتخيل، يعرض عليه فيها الأخير، وعلى طريقة دون كارليوني، عرضا لا يمكنه رفضه: أن اكتب أي شيء وسنحتفي به. تصفيق الجمهور المتحمس على الدوام، يهب الشخص (الذي قد أضحى كاتبا) قدرا خطيرا من الإطمئنان، إطمئنان يحض على الكسل والتكرار الرتيب. إنه يتجرأ ويكتب بلا حرص (فالجمهور سيصفق على أية حال). وانطلاقا من واجب متوهم، حيث يشعر أن لهذا الجمهور حقا عليه يلزمه بالكتابة في كل مرة. يبدأ الشخص في قول أشياء غير مبررة أو سخيفة، تماما كحال كوينتين ترانتينو، حينما يصر على الظهورفي خضم أعماله. من الصعب تبرير إصرار ترانتينو هذا، من فرط سخافته أو خفته . على الشخص أن يظل يرى نفسه شخصا مهما كلف الأمر. وعندما يكتب يأخذ بموعظة نيتشه ولا يكتب إلا لنفسه لا للجمهور.

١٣٤-يمتاز العجوز عمن سواه بأنه وحده من قد صارت حياته خلفه وليست أمامه، هو إذن يقف بعد حياته بطريقة أو بأخرى. حياة العجوز كلها ماضٍ، لم يعد فيها مكان لما يمكن تسميته بالمستقبل (ما الذي يشغل بال العجوز حينما يأوي لفراشه؟) بالرغم من أن سيوران كان يتساءل مبتأسا: هل الشيخوخة هي اقتصاص الحياة منا لأننا عشناها؟ إلا أنه لا يزال بوسعنا أن نغبط الشيخ على خفته الأنطولوجية، خفة من صار بلا مستقبل.
ماذا يحدث عندما يصير المرء شيخا قبل الأوان، أن يرى الحياة بعيني عجوز، أن يعيش يحزم أمتعته في كل يوم استعدادا لرحيل مبكر؟ عند هذه النقطة يعامل المرء مستقبله بقدر فظيع من التجاهل؛ هو يريد أن يستعير من الشيخ خفته، متوسلا ضربا من ضروب اليأس الصحي. في حياة على طريقة دولوز، حياة جغرافية تماما ، حياة البدو -الرحل الممتلئة بالمستقبل حد الغياب!